
سليمان المعمري
مدونة ابو عبدو
الذي لا يحب
جمال عبد الناصر
رواية
الانتشار العربي

سليمان المعمري

الذي لا يحب جمال عبد الناصر

رواية



سليمان المعمري

الذي لا يحب جمال عبد الناصر

رواية

لوحة الغلاف للفنانه: بدور الريامي



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-368-4

الطبعة الأولى 2013

موجز الكراهية

تنويه قد لا يكون ضروريًا

شخصيات وأحداث هذه الرواية من نسج خيال الكاتب.. فإذا ما تشابهتْ مع شخصيات أو أحداث حقيقية في الواقع فذلك لا يعدو كونه مصادفة قدرية محضة.

- 1 -

الراوي العليم:
زرني يا عَدُوِّي

كان ذلك صباحًا عاديًا كبقية صباحات الاثنتين والأربعين سنة الماضية التي قضاها هذا الرجل في ضريحه بمسجده بكوبري القبة انتظارًا ليوم القيامة.. كثيرون خارج الضريح يتحدثون عن هذا الرجل، بعضهم يحبه إلى درجة التقديس ويقول إن قبره روضة من رياض الجنة، وبعضهم الآخر يبغضه أشد البغض ويشيع أن قبره حفرة من حفر النار.. استيقظ جمال عبدالناصر على مشاعر غريبة لم يعتدها من قبل في قبره.. قال لحارس البرزخ: «يااااه.. صحيح أن الزمن يمر بسرعة، ها هي ستون سنة بالتمام والكمال تمر اليوم على ثورة يوليو.. والله اشتقت إلى مصر»، رد الحارس مبتسمًا: «أعرفك جيدًا.. عندما تبدأ كلامك بـ«ياااه» فأنت تريد أن تطلب شيئًا».. انفرجت أسارير عبدالناصر وقال للحارس بلهفة: «اسمح لي أن أعود إلى مصر.. بلغني أن ثورة عظيمة أخرى قامت بها أخيرًا..».

ابتسم الحارس بمكر: «ليس الأمر بهذه السهولة»..

ـ وما الذي سيصعب الأمر؟.. قبل سبعة عشر عامًا تقريبًا سمحتَ لي بزيارة الشيخ متولي الشعراوي.. ليس هذا فحسب بل سمحتَ لي بأن أحمل معي في الزيارة مرافقَيْن أحدهما طبيب والآخر مهندس.

ضحك الحارس وقال:

ـ تلك كانت زيارةً في منام الشيخ.. هذه نقطة أولى.. والنقطة الثانية هي أن الشعراوي نفسه هو الذي طلب لقاءك في لاوعيه ولستَ أنت الذي طلب اللقاء.. والنقطة الثالثة والأهم أن سبب إجابة طلب الشيخ هو كونه أحد أعدائك التاريخيين..

ـ ولكنه لم يصبح عدوي بعد الزيارة، بدليل أنه زارني هنا في القبر وأحضر معه مصورًا من الأهرام ليخبر الجميع بأنه صالحني.

ـ وهذه هي النقطة الجوهرية.. لو أن الشيخ الشعراوي طلبك بعد هذه المصالحة ما كنا أذنّا لك بزيارته.. فصاحبك هيكل مثلًا طلب أن تزوره مرارًا خلال هذه السنوات الطويلة ولكنا لم نسمح لك.

ـ هل عليّ الآن أن أنتظر أن يطلب أحد أعدائي زيارتي لأرى مصر التي اشتقتُ إليها؟!

ـ القانون هو القانون.. أنت ظللتَ تسن القوانين في بلادك وتدعو إلى احترامها طوال حياتك، فلا أقلَّ من أن تحترم القانون هنا أيضًا.. لو أن كل صديق طلب صديقه من القبر، أو أن أمًّا طلبت ابنها الميت، أو أرملة طلبت زوجها لخلت القبور وسادت الفوضى.. ولكن الأعداء نادرًا ما يطلبون عودة أعدائهم إلى الحياة ولهذا يتم التساهل في الموافقة على طلباتهم بغية غسل القلوب من الأدران ونشر التسامح في الأرض.

وضع جمال عبدالناصر يده على خده وتمتم بيأس: «علي إذن أن أنتظر إلى أن يطلب أحد أعدائي مقابلتي»..

أغمض عينيه فأخذته سِنة من النوم.. كان الحارس ينظر إليه بشفقة، كان يفكر أنه رغم كل ما قيل وكُتِب عن هذا الرجل إلا أن به جانبًا إنسانيًا لا يمكن تناسيه، يتذكر الحارس كيف أن هذا الرجل لم يستنكف من الرد وهو الرئيس المشغول بعظائم الأمور على رسالة طفل صغير بعث له يقول: «ربنا يوفقك ويوفق مصر».. شكره عبد الناصر على رسالته المعبرة عن شعوره النبيل داعيًا الله أن يحفظه ليكون عدة الوطن في مستقبله الزاهر، موصيًا إياه بالمثابرة على تحصيل العلم متسلحًا بالأخلاق الكريمة ليساهم في بناء بلده في ظل الحرية والمجد.. كان لتلك الرسالة أثر عظيم في ذلك الطفل الذي سيكبر ويصبح عالمًا كبيرًا اسمه أحمد زويل يفوز بأكبر جائزة علمية في الكيمياء على وجه الأرض، وهي الجائزة التي تحمل اسم رجل سويدي خلّف هو الآخر الكثير من الأعداء الذين يطلب بعضهم زيارته بين الحين والآخر.. وإذا كان القانون هو عدم عودة الموتى إلى الحياة بدون دعوة من أعدائهم، فإن قانونًا آخر ينص على أن من يُسعد طفلًا في حياته لا بد أن يجد من يسعده في قبره.. فكر الحارس في ثغرة قانونية يمكن أن يساعد بها عبد الناصر فكان أن ذهب إلى دهليز في أقصى الضريح وفتح دفتر العلاقات.. ثم ما لبث أن عاد إلى عبد الناصر، أيقظه بلطف قائلًا: «وجدتُ حلًا لمشكلتك».

هتف عبدالناصر وهو يدعك عينيه من النوم: «أسعفني به الله يخليك».

ـ وأنا أقلب دفتر العلاقات وجدتُ أن ثمة رجلًا ما زال على قيد الحياة يكن لك كراهية شديدة لدرجة أنها لو وُضِعتْ وحدها في كفة ميزان وَوُضِع بغض جميع الناس لك في الكفة الأخرى لرجحتْ كفته.

ـ يا ساتر.. لا بد أنه أحد أبناء سيد قطب.

ـ كلا.. ليس هو.

ـ ربما يكون إذن أحد أبناء محمد نجيب.

ـ كلا.. ليس هو.

ـ أيكون أحد أحفاد الملك فاروق؟!

ـ كلا.

ـ أحد أبناء غولدا مائير؟

ـ كلا.. ولا تتعب نفسك في محاولة معرفته، فليس من الشخصيات التي ذكرتَ، كما أنه لا يعيش في مصر الآن.

ـ أين يعيش إذن؟

ـ في سلطنة عُمان.

ـ لا يعقل أن يكون السلطان قابوس!.. فأنا مت بعد حكمه بشهرين فقط.

ـ كلا.. ليس هو.. إنه مصري، ولكن يُقيم في عُمان.. سنسمح لك بخروج موقت من القبر لزيارة هذا الرجل. إن استطعتَ أن تسل من قلبه ولو 1% من حقده الشديد عليك فستكون مكافأتك العودة إلى مصر حيًا معززًا مكرمًا.



خرج جمال عبدالناصر من القبر نافضًا التراب عن جسده.. أوقف تاكسي وطلب منه أن يحمله إلى مطار القاهرة الدولي.. قال سائق التاكسي وهو يحملق في سحنته باستغراب: «عارف يا بيه.. حضرتك فيك شبه كبير بالريس جمال عبدالناصر الله يرحمه.. لو يشوفوك بتوع السيما حيعملوا عليك أفلام».. فتح عبدالناصر فمه ليخبره أنه الأصل لا التقليد ولكنه لم يستطع.. لم يكن مسموحًا له أن يتجاذب أطراف الحديث قبل أن ينجز مهمته سوى مع شخص واحد يبعد عنه الآن آلاف الأميال.. فتح السائق مؤشر الراديو فأتى صوت الرئيس محمد مرسي هادرًا: «إن ثورة 23 يوليو عام 1952 كانت لحظة فارقة في تاريخ مصر المعاصر وأسست للجمهورية الأولى التي دعمها الشعب والتف حول قادتها وحول أهدافها الستة».. قال السائق موجهًا كلامه إلى عبدالناصر: «وكمان حاسبهم!!.. ما يغركش الكلام ده..

ده إخوانجي.. وما فيش إخوانجي بيحب ثورة يوليو.. ده حتى رفض يزور قبر الريس جمال النهارده».. اكتفى عبدالناصر بابتسامة فاترة وهو يفكر «لقد كان من أعظم الملامح في تجربتنا أننا لم ننهمك في النظريات بحثًا عن واقعنا، ولكننا انهمكنا في واقعنا بحثًا عن النظريات»، فيما واصل مرسي هديره: «إن هذه الثورة نجحت في تحقيق بعض أهدافها وتعثرت في أهداف أخرى وبخاصة الديمقراطية والحرية».. ضحك السائق وقال لعبدالناصر: «مش قلت لك؟».. نظر إليه عبد الناصر وهو يردد في نفسه: «إن الديمقراطية هي الحرية السياسية، والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية، ولا يمكن الفصل بين الاثنتين؛ إنهما جناحا الحرية الحقيقية».

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى وصل التاكسي إلى وجهته.. نقد عبدالناصر السائق أجرته ودخل إلى مبنى المطار.. وهناك، وبقدرة سحرية لا تتأتى عادة إلا للموتى الموعودين بالحياة، غافل الجميع، وزج بنفسه في رحلة الطيران العماني المتوجهة إلى مسقط.. بعد حوالى أربع ساعات شوهد يركب أحد تاكسيات مطار مسقط.. كان واضحًا أنه يعرف تمامًا إلى أين هو ذاهب.. الطريق الرئيسي من المطار الى الحمرية كان مليئًا بالزينة وصور السلطان قابوس وأعلام عُمان.. أدار سائق التاكسي المذياع فدوّت دقات ساعة برج الصحوة المميزة: «نشرة التاسعة مساء يقرأها محمد بن مرهون الحسني وهذا هو موجزها: السلطنة تحتفل اليوم بذكرى الثالث والعشرين من يوليو

المجيدة يوم انطلاقة النهضة المباركة».. ابتسم عبدالناصر بحبور وقال في نفسه: «والله فيكم الخير يا عمانيين»..

في منطقة الحمرية توقف التاكسي عند عمارة سكنية كبيرة.. وهناك قرع باب الشقة رقم 18.. فتح بسيوني سلطان الباب فرأى جمال عبد الناصر أمامه بشحمه ولحمه.. شهق شهقة قوية وسقط مغشيًا عليه.

ـ 2 ـ

جار النبي بسيوني سلطان،
صوّتْ لمرسي يا ولد

استيقظ يا أبي أرجوك.. لا تمت الآن.. أنا في أمسّ الحاجة إليك.. لا تذهب قبل أن تعلمني ألا أحتاج إليك في أتفه شأن من شؤون حياتي.. أنا لم أقل لك قط إني أحبك يا أبي، ولكن أقسم بالذي خلقك وخلقني أني أحبك بدون أن أقولها.. أنا لم أقلها لأنك لم تعلمني أن أقولها، أنت أيضًا لم تقل لي مرة أنك تحبني.. لم تقل بلسانك، ولكنك فعلت الكثير الذي يدل أنك تحبني.. أمي كذلك تتباهى بحبك لها رغم أنها تتشكى أنك لم تقل لها يومًا: «بحبك».. تقول أمي إنك من النوع الذي يكبت مشاعره الايجابية، ولا يظهر إلا السلبي منها كنوع من التنفيس.. لكن وجهك مع ذلك كتاب مفتوح تظهر عليه المشاعر طازجة بدون أي تزويق.. ليس الآن يا أبي.. من غير المعقول أن يقتلك رجل مات منذ أكثر من أربعين عامًا.. لا أعرف من هو السافل الواطي الذي صنع لك هذا المقلب الحقير.. المشكلة أن هذا الحادث غامض.. لم يرَ أيٌّ منا أيَّ شيء.. سوى جارنا العُماني فقط صاحب الشقة المجاورة رأى باب شقتنا مفتوحًا ورآك ساقطًا أسفل الباب تتلبط كسمكة أُخرِجتْ توًا من البحر وأنت تهذي بهستيريا: «حوشوه عني.. جمال عبد الناصر».. لم يكن أحد غيرك

في الشقة.. أنا كنتُ في رحلة عمل في مصيرة.. وأمي غادرت إلى القاهرة منذ أكثر من شهر.. ازاي نحوش عنك جمال عبدالناصر وهو ميت!!.. جارنا ناصر أقنعني أن في الأمر سحرًا عُمانيًا وأن علينا أن نذهب إلى عراف يسميه العمانيون «باصر».. ناصر حملني إلى باصر.. والباصر كان جامد الملامح ذا لحية تتدلى من أسفل ذقنه تشبه لحية التيس.. كادت نظرتُه الصارمة تخترقني قبل أن يقول:

ـ خير إن شاء الله.. لا تقلق يا ولدي.. من متى أبوك صابته هذي الحالة؟

ـ من ييجي شهر، وهو راقد في المستشفى السلطاني مغمى عليه، ولحد دلوقت ما فاقش.

ـ قلت لي اسمه محمد بسيوني سلطان؟

ـ آه.

ـ ومن اسم والدته؟

ـ عنايات.. لكن أيه دخل تيتة في الموضوع؟

لم يرد.. بل أخذ يرفع نظره شيئًا فشيئًا إلى الأعلى ثم يحرك رأسه يمينًا وشمالًا كمجنون خرج توًا من مستشفى المجانين.. كان ناصر ينظر إليه باهتمام.. ثم فجأة نظر إلي الباصر بحدة وقال:

ـ قلت لي محصلينه يهذي قدام الباب؟

ـ آه.. وبيقول: «حوشوه عني.. جمال عبدالناصر»

ـ يا ولدي.. جنية كبيرة ما مسلمة والعياذ بالله حطت ولدها الرضيع قدام باب شقتكم، ولما خرج أبوك ما شاف الجني الصغير ووطاه ف عينه!.. عشان كذا تأذى.. هذا قلب الأم يا ولدي.. قلب الأم.

وأعطاني «حرزًا» وطلب مني أن أضعه تحت وسادتك وقال: «إن شاء الله أسبوع بس وبيقوم والدك مثل الحصان».

وها هي ثلاثة أسابيع مضت منذ هذه الزيارة للباصر وما زلتَ يا أبي في غيبوبتك، الباصر الذي أعطاه ناصر 80 ريالًا لم يتمكن من شفائك يا أبي، أنتَ الذي ظللتَ طوال عُمرك تعلمني أن أقول: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» لأنجو من أي شر.. «حوشوه عني جمال عبدالناصر».. تعرف يا أبي؟!.. صرتُ أكره هذا الرجل أكثر منك رغم أنني كنتُ وأنا صبي ينتابني شعور لذيذ بالفخر عندما كنتُ أسمع زملائي العمانيين يمدحونه في المدرسة ويعتبرونه بطل العروبة الأول.. نعم.. هذا اعتراف متأخر يا أبي، ولكن هل كنتُ أجرؤ أن أنطق مجرد اسمه أمامك؟!.. صرتُ أكرهه لأني بدأتُ أتأكد أنه صار قدري مثلما كان من قبل قدرك أنت.. فها هو يستعد ـ وهو نائم في قبره ـ لخطفك مني كما خطف من قبل خطيبتي داليا.. هل تعرف أنها اتصلتْ اليوم من مصر فقط لتطمئن إليك؟!.. للوهلة الأولى لم تصدق أذني: داليا تكلمني!، هكذا بدون أي تحفظ، بعد خمس سنوات من القطيعة؟!!.. آه يا أبي.. أحبك ولكني لن أسامحك أبدًا على حرماني من داليا، حبي

الوحيد والأخير.. كيف طاوعك قلبك أن تجبرني على تركها لسبب لا ذنب لها فيه ولا ذنب لي أنا؟!.. إلى اليوم ورغم مرور هذه السنوات الخمس وأنا لا أستطيع أن أنسى دموعها وكلماتها الغاضبة وهي تصفني بـ«الشيخشيخة» عديم الشخصية.. ماذا كانت تنتظر مني أن أفعل وأنا أراك يا أبي تخيّرني بينها وبينك!!.. هل كنتُ سأختارها وأغضبك أنت في سنك هذه، وبعد كل الذي قدمتَه من أجلي؟!.. قالت أمي: «أنا ما أستبعدش إن أبوك يطب ساكت لو ركبت راسك وأصريت تتجوز البنت دي».. لقد فسختُ خطبتي لداليا بعد سنتين من الحب العفيف لأنك اكتشفتَ متأخرًا يا أبي أن أباها... ناصري!.. يا له من سبب وجيه لإنهاء العلاقات الإنسانية!!.. لن أسامحك يا أبي ولكني أحبك ومستعد أن أفديك بحياتي.. يكفي أنك كنتَ معي أولًا بأول في محنتي التي كدتُ أدخل بسببها السجن.. لن أنسى أنك كنت تعمل في مكانين مختلفين صباحًا ومساءً لتوفر إيجار الشقة ومستلزمات البيت بعد أن توقفتُ عن العمل بسبب قضية الشيكات التي ورطني فيها شريكي في الشركة، «ازاي يا عبيط تمضي على شيكات من غير ما تتأكد إن ليها رصيد»، قلتَ لي موبخًا، وأضفتَ: «أنا مش حذرتك من العمانيين وبلاويهم؟».. نعم يا أبي حذرتني، ولكني لم أصدقك.. لأنني عشتُ كل عمري تقريبًا بينهم، لدرجة أنني أعد نفسي عمانيًا أكثر من كوني مصريًا.. شهادة ميلادي مسجل فيها أنني مولود في صحم.. صحيح أنه ليس لدي أصدقاء عمانيون كثر، ولكن هذا لأنك كنتَ تمنعهم من

زيارتي وتمنعني من زيارتهم.. كان شريكي في الشركة عمانيًا مصادفة، وإلا فقد كان من الممكن أن يكون مصريًا أو تنزانيًا أو حتى هنديًا.. «يا واد يا جار النبي ربنا يهديك.. دول الواحد منهم لما يعوز يفتخر قصاد زمايله يقول عن نفسه وهو فرحان: أنا عماني حاسد.. ازاي سلمته رقبتك.. ازاي؟!».. لكن القضاء العماني أنصفني ببركة دعائك ودعاء أمي، وها أنا ـ بعد أن قضيتُ نقاهة من هذه القضية في المهندسين ـ عدتُ إلى عُمان وبدأتُ حياة جديدة لدرجة أنك لم تعد محتاجًا إلى العمل مناوبتين في اليوم.. عرضتُ عليك أن تقضي ما تبقى من عمرك معززًا مكرمًا في البيت، ولكنك قبلتَ فقط ترك العمل في شركة التأمين وأصررتَ على البقاء مصححًا لغويًا في جريدة «المساء».. «يا ابني أنا زي السمكة، لما تطلع من البحر تموت».. طلبتْ أمي منك مرارًا أن نعود إلى مصر ونبيع العمارة ونبدأ حياة جديدة هناك.. قلتَ: «نأجل الكلام ده لما يفوز مرسي إن شاء الله».. وها هو مرسي قد فاز ببركة صوتك ولكنك لم تعد.. أنا أيضًا صوتُّ له من أجلك، من أجلك وحدك يا أبي، لأنني لا أحب مرسي ولا أكرهه.. أنا لا أفعل شيئًا إلا لأرضيك، ولهذا نعتتني داليا بـ«الشيخشيخة»، ونعتني صديقي محسن فتح الباب بـ«المهزوز».. أقصد الذي كان صديقي، فلم يعد كذلك الآن بعد أن أرغمتَني على قطع علاقتي به هو الآخر بعد ملاسنتكما الأخيرة في السفارة المصرية في مسقط.. والمضحك في الأمر أنه ما كان ليكون صديقي لولا أنك

أنتَ الذي عرفتني به عندما زرتُك مرة في جريدة «المساء».. صار محسن بعد ذلك أعز أصدقائي في عُمان لدرجة أننا أحيانًا نقضي إجازتنا الأسبوعية نتنزه في صور أو الجبل الأخضر أو رأس الحد.. وأنتَ نفسك كنتَ تخبرني أنك مطمئن إليّ ما دمتُ مع محسن.. وفي اليوم الأخير من علاقتنا ذهبنا ثلاثتنا في تاكسي واحد إلى السفارة المصرية.. كان يوم التصويت في انتخابات الرئاسة.. كنا سعداء لأننا لأول مرة نشعر أننا موجودون.. لأول مرة يُحسَبُ حساب المصريين الذين يقيمون خارج مصر.. صوتَّ أنتَ أولًا لمرسي.. وجاء دوري فقلتَ لي: «صوّتْ لمرسي يا ولد» ففعلتُ.. وجاء دور محسن فقلتَ له: «صوّتْ لمرسي يا ولد» فرد عليك بطريقة مهذبة: «لا يا عم.. أنا ما اعتصمتش تمانتاشر يوم في التحرير عشان أنتخب الإخوان، أنا حصوتّ لحمدين صباحي».. ولا أدري لماذا انفعلتَ يا أبي في وجهه وشتمتَه: «انته واد قليل الأدب».. لأول مرة خلال ثلاث سنوات هي عمر علاقتي به أرى محسن فتح الباب غاضبًا، قال لك: «أولًا لأنك كبير في السن، وتانيًا لأنك والد أعز أصدقائي أنا مش ح رد عليك».. منذ ذلك اليوم أرغمتَني على قطع علاقتي به.. وعندما اكتشفتَ أنني ما زلتُ على علاقة به لطمتَني على وجهي وأنا ابن الثلاثين وأرغمتني أن أحلف على مصحف أنني لن أكلمه حتى وإن كان هو المبادر إلى الكلام!.. وهذا ما حدث بالضبط، فقد ظل محسن يتصل بي مرارًا وأنا لا أرد عليه إلى أن مل وبعث لي رسالة هاتفية طويلة

كل ما رسخ في ذاكرتي منها اتهامه لي بأنني مهزوز.. والله إنني أنكس رأسي خجلًا كلما رأيتُه يدخل هذه الغرفة.. منذ رقدتك هذه زارك تسع أو عشر مرات، وفي كل مرة يدعو لك بالشفاء ويخبرني أن والده الذي لا يعرفك يدعو لك أيضًا من مصر.. آخر هذه الزيارات كانت قبل قليل، حتى إني خرجتُ أودعه وعندما رآني ابتعدتُ عن الغرفة قليلًا حلف عليّ أن أعود مخافة أن تفيق فلا تجد أحدًا بجانبك.. وها أنا عدتُ.. ولكن ما هذا؟!.. باقة الورد هذه لم تكن موجودة قبل أن أخرج!.. لم أغب سوى دقيقتين فقط فمن دخل هنا في غيابي؟!.. دعني أرَ ماذا كُتِبَ في البطاقة.. يا إله السماوات!!.. غير معقول!!.. مستحيل!!.. «ارفع رأسك يا أخي.. محبك جمال عبدالناصر»!!!.

ـ 3 ـ

رئيس القسم الديني: هل سيد قطب أباضي؟!

أنا أقرب موظفي الجريدة إلى بسيوني سلطان وأكثرهم تفهمًا لنفسيته.. وأشد ما يحزنني هذه الأيام أنني لم أعد أسمع تعليقاته على الملحق الديني بعد أن اعتدتها.. نعم.. اعتدتها وأصبحتْ جزءًا حيويًا من عملي رغم أني لا أستفيد من معظمها.. بسيوني أخ عزيز.. وله جوانب مشرقة لا تنسى.. أسأل الله العلي القدير أن يشفيه ويخرجه من المستشفى بخير.. أذكر أول يوم التقيته في الجريدة قبل خمس سنوات.. كان ذلك في بدايات عام 2007، بعد نحو عدة أشهر من عملي في جريدة «المساء».. تحدثنا طويلًا، وعرفتُ أنه حافظ للقرآن وأنه خريج الأزهر الشريف.. وعندما أَمَّنا في صلاة المغرب بكى بصوته الرقيق.. أذكر يومئذ أنني قلتُ له: «إن في تدينك يا شيخ رقة تذكرني بما قرأته عن رقة سيدنا عثمان بن عفان».. كان زميلنا الصحفي سالم الخنصوري ـ رئيس قسم المحليات ـ ينظر إلينا ويبتسم.. لاحقًا فقط سأعرف أنها ابتسامة سخرية.. فبمرور الوقت اكتشفتُ أن دمعة بسيوني متأهبة للنزول لأتفه سبب، حتى إنه مرة بكى لأنني أخبرتُه أن زميلتنا شمسة رغم سنواتها الخمس والأربعين غير متزوجة!.. يتهيأ لي أن بكاء بسيوني هو بكاء على نفسه قبل

أن يكون على الآخرين، لذا فإن تفننه في ابتكار أسباب البكاء هي طريقته في التنفيس.. أذكر ذات مساء أن التليفزيون المعلق في ميدان التحرير كان يعرض مسلسلًا مصريًا.. كلا، ليست زلة لسان.. ثمة «ميدان تحرير» في عُمان مثلما هناك «ميدان تحرير» في مصر.. إنها صالة التحرير في جريدة المساء، أطلق عليها موظفو الجريدة «ميدان التحرير» تيمنًا بثورة 25 يناير المصرية التي كنا نتابع أحداثها من قناة الجزيرة في تلك الصالة، هذا طبعًا بدون علم الأستاذ مرهون البطاشي رئيس التحرير، لأنه بكل تأكيد لم يكن ليسمح بذلك.. أقول إن التليفزيون المعلق في ميدان التحرير كان يعرض مسلسلًا مصريًا.. كان بسيوني يحملق في المسلسل ودموعه تسيح بغزارة.. سألته: أيش اللي يبكيك يا شيخ محمد؟.. قال وهو يمسح دموعه: «الكلب ابن الكلب مش راضي يخرج من الشقة.. قال أيه لأنه مستأجر، والقانون مع المستأجر»، قال زميله المصحح العماني مبارك المقبالي الذي كان يتابع المسلسل أيضًا: «من حقه ما يطلع.. صاحب الشقة طماع ومصرّ يزيد الإيجار عليه خمسة أضعاف!».. هنا هاج بسيوني وصرخ بانفعال: «اخرس انته. وما تحشرش نفسك بين المصريين.. الكلب ده مش عاوز يخرج من الشقة لأنه مستقوي بقانون اللي ما يتسماش الله لا يرحمه».. سكت المقبالي ونكس رأسه، كعادته عندما يتعرض للسان بسيوني السليط.. لكن سالم الخنصوري دخل الصالة في اللحظة غير المناسبة ليكهرب الأجواء وينتقم لمبارك: «هذا اللي تسميه ما

يتسماش هو فخر الأمة العربية»، انفعل بسيوني وبدأ يرتعش وهو يصرخ موجهًا كلامه إلى سالم: «الله يلعنه ويلعن اللي يحبه».. هنا أمسكت بسالم من يده وطلبتُ منه أن يغادر.. وقلتُ لبسيوني محاولًا تهدئته: «أيش رايك نروح نعمل شاي في مطبخ التحرير»

في اليوم التالي لهذه الحادثة كنتُ في مكتبي عندما سمعتُ صراخ بسيوني الشديد فخرجتُ مسرعًا إلى ميدان التحرير، لأسمعه يشتم ويلعن ويهدد: «وديني لنا مفنشه من هنا»، سألته: «خير يا شيخ محمد، شو صاير؟» فردّ بغضب والبصاق يتطاير من فمه: «الكلب اللي ما يتسماش حاطط لي صورة اللي ما يتسماش في دُرجي»، لم أكن بحاجة إلى كبير ذكاء لفك شفرة هذا اللغز، فـ«اللي ما يتسماش» الأول هو سالم الخنصوري الذي وضع له صورة «اللي ما يتسماش» الثاني جمال عبدالناصر وهو يرفع يديه مبتسمًا ومسلمًا على الجماهير، وتحت الصورة تعليق بالبنط العريض: «حبيب الملايين».. سالم الخنصوري صحفي موهوب، وقدم للجريدة العديد من السبوقات الصحفية، ورئيس التحرير يثق به ويوكل إليه العديد من المهام الصعبة، لكن لديه للأسف نزعة غريبة للانتقام ممن يسيء إليه باستفزازه حتى يفقد أعصابه، يعزو صديقه حسن العامري ـ رئيس القسم الثقافي ـ ذلك مازحًا إلى أن والد الخنصوري نسي أن يؤذن في أذنه وهو رضيع!!.. تعرفتُ إلى سالم هذا للمرة الأولى عام 2005 ولم أكن بعدُ تقاعدتُ من وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.. بتعبير أدق:

تعرفتُ إلى اسمه في تغطيته لأخبار قضية الاعتقالات التي كنتُ أحد أطرافها.. كانت جريدتا المساء والشبيبة الوحيدتين اللتين غطّيتا قضية ما سُمّي بالتنظيم السري المحظور، وقد لاحظتُ أن المساء كانت أكثر مهنية في تغطيتها، ولم تكن متبنية صف الحكومة كما ظهر لدى الجريدة الأخرى، ولم تنسب إلينا نحن المتهمين أقوالًا لم نقلها.. وهذا ما شجعني لاحقًا على الانضمام إليها بعد خروجي من السجن.. بالمناسبة سأبوح بسر صغير: قبل حوالى شهر اتصل بي رجل قال إنه من القسم الخاص بالشرطة، وطلب مني الحضور ولم يخبرني السبب.. شعرتُ بالقلق والخوف، وطَفَتْ على سطح ذاكرتي تلك الليلة المشؤومة التي لن أنساها أبدًا عندما طوق الأمن حارتي الواقعة في ولاية نزوى بأكملها للقبض عليّ.. أخبرتُ زوجتي بالأمر وأوصيتُها بالأولاد خيرًا وأعطيتها بطاقة بنك مسقط ورقمها السري لتصرف منها في غيابي، بل حملتُ معي أيضًا دواء السكري.. حاولتْ المسكينة طَمْأنتي بأنه لا داعي للقلق بما أنه مجرد استدعاء بالهاتف ولكني أصررتُ على أن الاحتياط واجب، والذي لدغته الأفعى يخاف من الحبل.. قلتُ لها حرفيًا: «في تلك الأيام لم يكن هناك ربيع عربي ولا ثورات ولا تظاهرات ولا اعتصامات واتهموني بمحاولة قلب نظام الحكم، فكيف اليوم وأخبار الربيع العربي تهز العالم»!.. فردتْ ساخرة: «والله لو كانوا يريدونك لموضوع فيه شر كانوا بيجوا يشلونك في جونية كما معتصمين صحار، ما بيتصلوبك بالتليفون تعال تفضل

اقرب حيتنا».. وصدَقَتْ مريم، فقد اكتشفتُ أن الأمر يتعلق ببسيوني سلطان، هذا الرجل الذي تتحول قصة غيبوبته يومًا بعد يوم إلى لغز محيّر.. أكاد أكون متيقنًا أن الذي وضع باقة الورد في المستشفى هو نفسه الذي انتحل شخصية عبدالناصر ودق عليه باب شقته.. لا يعقل طبعًا أن يكون سالم الخنصوري.. لا أحد يعرف أين يسكن بسيوني إلاي والسيدة زينب العجمي، ونحن أقرب اثنين إليه، ولا يمكن أن نذكر اسم عبد الناصر أمامه ناهيك عن انتحال شخصيته.. صحيح أن سالمًا لا يخلو من مكر ولديه كما أخبرتكم نزعة غريبة للانتقام ممن يسيء إليه باستفزازه حتى يفقد أعصابه، ولكني أعرفه جيدًا: لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من الاستفزاز اللفظي.. وما أسهل أن تستفز بسيوني.. فبعد حادثة وضعه صورة عبدالناصر في درج بسيوني بيوم كان الجميع متحلقين أمام شاشة الجزيرة يستمعون باهتمام إلى خطاب الرئيس بشار الأسد أمام مجلس الشعب السوري.. كان محررو الجريدة وموظفوها نسخة مصغرة من الأمة العربية في انقسامها وتشرذمها وعدم اتفاقها على شيء: فنصفهم كان مثلي مع الثورة السورية بوصفها امتدادًا للربيع العربي، والنصف الآخر مع بشار على اعتبار أن بلاده تتعرض لمؤامرة كونية تستهدف ما تبقى من حصون المقاومة والممانعة العربية، التي تبدو سوريا حاملة لواءها.. استغل الخنصوري صمت الحضور وقال بصوت عال وبنبرة أقرب إلى التمثيل وكأنه يتعمد أن يُسْمِع صوته بسيوني: «قال عصابات مسلحة قال.. والله لو كان الزعيم الخالد

جمال عبد الناصر عايش ما كانت هذي حالتنا»، لم يكد الخنصوري ينهي جملته حتى تزلزلت القاعة بصرخة بسيوني الهادرة: «الله يلعنه ويلعنك، يا شيوعي يا سافل»، وهبَّ ناحية سالم ليضربه لولا تدخل الزملاء الذين فصلوا بينهما.. ومنذ ذلك اليوم بدأت قطيعة شديدة بين الرجلين، خصوصًا بعد أن اكتشف الخنصوري وهو ذاهب إلى رئيس التحرير لتقديم شكواه بأن بسيوني سبقه متهمًا إياه بمحاولة التعدي عليه!..

بمرور الوقت عرف الجميع - وليس سالمًا فقط - نقطة ضعف بسيوني.. ولأنه من ذلك النوع من البشر الذي - رغم ما يبدو من تدينه الواضح - لا يجيد الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الناس فقد عمد كثيرون إلى استفزازه بالطريقة نفسها، إما بالزج باسم جمال عبد الناصر في حواراتهم، وإما بوضع أوراق مطبوعة عن هذا الزعيم على طاولة مكتبه بحجة الحاجة إلى تدقيقها لغويًا، ووصل بهم الأمر أن وضعوا له مرة فوق مكتبه صورة لعبدالناصر ومعه الثائر العالمي تشي جيفارا يقول التعليق الذي كُتِبَ تحتها أنها «التُقِطَتْ في قرية كمشيش المصرية مسقط رأس الأستاذ بسيوني سلطان»!، والغريب أنه اتضح لي فيما بعد أن هذه المعلومة صحيحة!.. وفي كل مرة كان بسيوني يخرج عن طوره ويشتم الجميع ثم يتهم الخنصوري بتدبير المكيدة ويشكوه إلى رئيس التحرير، وسالم لم يكن ينفي التهمة لأنه يُسعده أن يرى بسيوني غاضبًا ومُستَفَزًّا.. واضطر بسيوني في النهاية إلى الهرب من مكتبه الواسع، وذهب إلى مخزن

صغير ضيق بعيد قليلًا عن ميدان التحرير واتخذه مكتبًا، وهو المكتب الذي أطلق عليه حسن العامري فيما بعد: «القن»!.

الآن بعد حوالى شهرين من غيبوبة بسيوني أتساءل: لماذا استدعاني القسم الخاص؟! ولماذا هو بالذات من يحقق في هذا الأمر وليس الشرطة العادية؟!.. ألأن القضية ورد فيها اسم جمال عبدالناصر؟!.. هل أصبحت قضية أمن دولة كقضية تنظيم 2005؟!.. «التحضير لقلب نظام الحكم بقوة السلاح لإقامة نظام حكم الإمامة»، والله إنني أضحك داخلي بمرارة كلما تذكرتُ هذه التهمة.. أنا الإنسان البسيط المسالم الذي لا أذكر يومًا أنني سببتُ أحدًا مجرد سِباب صرتُ الآن أخطط لقلب نظام الحكم؟!.. قسمًا بالله إنني بريء من هذه التهمة الشنيعة، وكدتُ أقضي عشر سنين عجاف في السجن ظلمًا لولا عفو صاحب الجلالة.. كل من يعرفني يعرف أنني إنسان بسيط، كل تهمتي أنني متدين يطلق لحيته امتثالًا لسنة نبيه الكريم ويخلص لمذهبه الأباضي مثلما يخلص السنة والشيعة والوهابية لمذاهبهم.. هل الإخلاص للمذهب جريمة يعاقب عليها القانون؟!.. هل عندما انضم إلى مجموعة غير سياسية ـ ولا أقول تنظيمًا ـ لتعليم مبادئ مذهبنا للناشئة ورد الهجمات المسعورة التي تكال ضده من كل حدب وصوب أصبحتُ مجرمًا خطيرًا؟!.. وهل وجود بندقية من نوع «سكتون» في بيتي أثناء تفتيشهم صار دليلًا ساطعًا ضدي؟!.. هل سأقلب نظام الحكم بـ«سكتون»؟!!.. هل هناك عُماني واحد لا يوجد في

بيته بندقية؟!.. ثم ألم يصرح يوسف بن علوي حرفيًا أن «القضية لا علاقة لها بالسياسة والإرهاب، وأن التنظيم السري لا يهدف إلى إطاحة نظام الحكم، وأن المعتقلين حلوا تنظيمهم قبل الاعتقالات بفترة»!!.. إن الأمر برمته ينطوي على سوء فهم، تمامًا كما كان يجري بيني وبين بسيوني أحيانًا.. أنا يا سادة مواطن عُماني بسيط يمكن القول إنني ملتزم دينيًا بلا إفراط ولا تفريط.. ولدتُ في قرية طيمسا بمدينة نزوى التاريخية عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2015، التي نلقبها نحن العمانيين بـ«بيضة الإسلام» كما تعرفون، لأب كان عالمًا من علماء المذهب الأباضي، وقاضيًا في عهد السلطان سعيد بن تيمور.. أدبني أبي فأحسن تأديبي، وعلمني أن السير على طريق أهل الحق والاستقامة هو أنجح الطرق للسعادة في الحياة الدنيا قبل الآخرة.. لم يكن أبي متعصبًا لمذهبه البتة بدليل أن أعز صديقين له كان أحدهما سنيًا من شناص، والآخر شيعيًا من مطرح، هو بالمناسبة والد زميلتنا في الجريدة زينب العجمي.. كانت مكتبة أبي زاخرة بالكتب الدينية: تلقين الصبيان للسالمي، صحيح الإمام الربيع بن حبيب، صحيح البخاري، «فقه السنة» للسيد سابق، «الحلال والحرام في الإسلام» للشيخ القرضاوي، «إسلام بلا مذاهب» لمصطفى الشكعة، «بحار الأنوار» للمجلسي، و«الاستبصار» للشيخ الطوسي، و«الكافي» للكليني.. قرأتُ هذه الكتب وغيرها وتشربتها، وأصبحت لدي ثقافة لا بأس بها في تعاطي المذاهب المختلفة مع القضايا الفقهية.. في العام 1995

حدث لي موقف عجيب جعلني أتفكر فيه مليًا فيما بعد، فقد كنتُ في عداد موظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (لم تكن شؤونًا «دينية» آنذاك، لأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر لم تكن واقعة بعد) الذين أنعم الله عليهم بالذهاب لأداء فريضة الحج، وهناك ـ وبينما أنا أصلي تحت الحرم ـ أخذني من يدي رجل لحيتُه طويلة تصل إلى بطنه ويرتدي غترة حمراء وعقالًا وقال لي: «أنا أخوك في الله وأرجو أن تستمع إلى نصحي فإني لا أريد لك إلا الخير» قلتُ: «تفضل».. قال: «إني أنصحك باتباع أهل السنة والجماعة والابتعاد عن هؤلاء الخوارج الضالين الذين يقولون بخلق القرآن والعياذ بالله».. قلتُ له: «من تقصد بالخوارج؟»، قال: «الأباضية».. أنتم تعرفون أن هؤلاء بدأوا يتجرؤون علينا أكثر بعد فتوى بعض شيوخهم بتكفيرنا.. المهم أنني حاولتُ إقناعه أننا لسنا ضالين وأن اعتقادنا بخلق القرآن وخلود مرتكب الكبيرة في النار، وغيرهما من المواضيع الخلافية لا يمكن أن يخرجنا من الملة.. كانت تلك المرة الأولى التي أتعرض فيها بشكل شخصي لتعصب مذهبي.. ولذا فإنه عندما جاءني رجل في أواخر عام 1997 وقال لي إنه مرسل من قبل فضيلة الشيخ مالك بن هلال العبيداني يدعوني لأن أكون عضوًا في مجموعة دعوية ترسخ مبادئ المذهب لدى الناشئة وتشرح لهم تفاصيله، فإنني لم أتردد في الموافقة لأني اعتبرت ذلك واجبًا وطنيًا ودينيًا.. حدث بعد ذلك أنني حضرتُ بعض اجتماعات هذه المجموعة، مرة في شقة الشيخ محمد،

ومرة ثانية في شقة الشيخ مبروك، وثالثة في شقة الشيخ إبراهيم.. وكان من ضمن ما اتفقنا عليه تكثيف جرعة المحاضرات في المساجد بعد صلاتي العصر والمغرب، وتأسيس صندوق تبرعات خيري لمصلحة العمل الدعوي يضع فيه كل منا مبلغًا بسيطًا من راتبه (عشرة ريالات أو عشرون، كل حسب استطاعته).. ثم سافرت لدراسة الماجستير في الأردن عام 1999، وعندما عدتُ عام 2001 رأيت كيف أن كثيرين من الجهلة والمتعصبين يهاجمون مذهبنا في مواقع الانترنت وينسبون إليه الكثير من الأكاذيب لتنفير الناس منه، بل يتطاولون على علمائه، فساهمت بما آتاني الله من علم في الرد عليهم في مواقعهم تلك، وفي الموقع العُماني «سبلة العرب»، إضافة إلى مواصلتي بعض المحاضرات في هذا المسجد أو ذاك.. أما المجموعة فقد انقطعت علاقتي باجتماعاتها بعد سفري إلى الأردن ولم أعد إليها بعد ذلك.. ذلك أن عددًا من مشايخ الأباضية المشهود لهم بالحكمة والتعقل أقنعونا بحل المجموعة لكي لا نثير مخاوف الحكومة خصوصًا وأنها فتحتْ عينها أكثر على علماء الدين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. ومضت أيامي بعد ذلك بشكل طبيعي حتى جاءت تلك الليلة المشهودة من عام 2005 عندما قُبِض عليَّ وعلى بعض المشايخ الآخرين في جنح الليل لنتهم بأننا نريد أن نقلب نظام الحكم ونعيد نظام الإمامة، ويكون محور التحقيق معي ومع بعض زملائي علاقتنا بالشيخ خالد الخروصي الذي أكل الدود جثته منذ عدة سنوات!.

لا أظنني سأكون مبالغًا الآن إذا قلتُ إن أسعد أيامي كانت تلك التي قضيتها في السجن، كانت أشبه بفترة تعبّد أو اعتكاف في المسجد، تحررتُ فيها من كل القيود والمشاغل الدنيوية من وظيفة وزوجة وأولاد ومشاكل عائلية وتفرغتُ فقط للصلاة والدعاء وقراءة القرآن، وتأمل ذاتي من الداخل، لم أكن يومًا أقرب إلى الله من تلك الفترة.. لم يكن هذا شعوري وحدي بل معظم المشايخ الذين قبض عليهم معي وجُمِعنا جميعًا في سجن الرميس.. مرة رأيتُ المرحوم أبي في المنام يطلب مني أن أصبر، ويؤكد لي أن هذا ابتلاء من الله ليختبر إيماني.. ما يحز في النفس أننا كنا صفوة مثقفي المذهب، وبعضنا درس في دول غربية ويعرف تمامًا أن إقامة إمامة على أنقاض حكومة قائمة ليست بهذه السهولة التي تَصَوَّرها من وجه إلينا هذه التهمة الظالمة.. المهم أننا كنا أشبه بالعائلة الواحدة، هذا يخفف عن ذاك، وذاك يطمئن هذا أن الله لن يتخلى عنه.. كنا قلبًا واحدًا في أجساد كثيرة.. أما اليوم وقد فرج الله كربتنا وأزال غمنا فقد تفرقنا شذر مذر.. هل تصدقون أنني ـ بعد سبع سنوات من الإفراج ـ لم أرَ كثيرين ممن كانوا رفقاء السجن ولا مرة واحدة!!.. بعضهم تركت هذه المحنة ندوبها في روحه فصار يتحاشى كل مَنْ يذكره بها!.. وبعضهم باع بيته في مسقط وقرر أن يعيش في مزرعته البعيدة معتزلًا الناس ومتفرغًا للعبادة.. ما زالت ذكرى فرحة الإفراج ماثلة أمام عيني وكأنها حدثت اليوم وليس منذ سبع سنوات.. جاءنا آمر السجن وطلب تبديل ملابس السجن

بدشاديشنا العمانية وأخبرنا أن شخصية هامة في الدولة ستزورنا بعد قليل.. طفقنا نضرب أخماسًا بأسداس، بعضنا متوجس، وبعضنا مستبشر خيرًا.. قال الشيخ محمد وهو أحد المهتمين بعلوم الأسرار: «ألم أخبركم قبل يومين أنني سأصلي الجمعة القادمة في عبري؟!».. وكان بالفعل قد أخبرنا بذلك وطلب منا أن نستعد نحن أيضًا لأداء صلاة الجمعة القادمة في بلداننا، وكنا بين مشاطِرٍ إياه في الأمل، وساخر منه، ومشفق عليه لأن الحنين إلى البيت والأهل بلغ منه مبلغًا جعله ينسج قصصًا خيالية من أحلام اليقظة.. وما هي إلا دقائق بعد أن تركنا آمر السجن حتى دخل علينا مفتش الشرطة السابق مالك بن سليمان المعمري بلباسه العسكري الكامل إذ إنه كان قادمًا من المطار السلطاني مباشرة بعد أن شارك في استقبال جلالة السلطان القادم من زيارة لمصر والكويت ليبشرنا بخبر العفو السعيد وهو يقول إن أمثالنا من المشهود لهم بالأخلاق والعلم والفضل ليس مكانهم الحبس وراء الجدران.. والله إنني من سعادتي نسيتُ أنني صائم يومها وشربتُ ماء أبلُّ به ريقي.. كان ذلك يومًا سعيدًا لا يُنسى.. ليس لنا نحن المسجونين فحسب بل لعائلاتنا، لدرجة أن ابني جابر لم يصدق وظن الذين اتصلوا به من السجن يخبرونه بنبأ العفو السامي وأن عليه أن يأتي لأخذي ظنهم يدبرون له مقلبًا.. وعندما التقيت وجابرًا وأمه كان عناق وزغاريد ودموع.. ولكن ـ وا أسفاه ـ انقلبت الآية بعد أن أفقتُ من سكرة الفرح.. فكما كانت أيام السجن أسعد أيام حياتي فقد كانت الأيام الأولى

للإفراج هي أسوأ أيام حياتي على الإطلاق.. هل جربتم تلك النظرة المرتابة التي تخترقكم حد العظم وتقول لكم بكل وقاحة: «ما الذي كان ينقصكم لتخونوا الوطن أيها الأوغاد!».. أقسم إنني كنتُ أقرأ هذه النظرة في وجوه جميع زملائي في الوزارة، لدرجة أنني قدمتُ طلب تقاعد من الخدمة مستغلًا مرور عشرين سنة على عملي في وزارة الأوقاف.. وتطلب الأمر مني مقابلتين لسعادة الوكيل أولًا ثم معالي الوزير لتتم الموافقة على طلبي.. قضيتُ بعدها سنة في بيتي في المعبيلة معتزلًا الناس، ولم أذهب إلى طيمسا إلا في العيدين.. ثم قرأتُ مصادفة إعلانًا في جريدة المساء يطلب رئيسًا للقسم الديني، بعد وفاة الرئيس السابق في حادث سير فتقدمتُ للوظيفة وقُبِلتُ بها.. أجمل ما في هذه الوظيفة أنها أبعدتْني عن محيطي السابق وأوجدتْ لي محيطًا جديدًا معظمه لا يعرف شيئًا عن خلفيتي السابقة، ومن يعرف فإنه يتحاشى ذكر ذلك أمامي لئلا يحرجني.. مرة واحدة فقط شن بسيوني سلطان أمامي هجومًا لاذعًا على أعضاء التنظيم ـ دون أن يعرف أنني أحد المتهمين بعضويته ـ مرددًا ترهات وزير الإعلام السابق نفسها بأننا «خفافيش الظلام»، فرفعتُ صوتي عليه في ذلك اليوم كما لم أرفعه من قبل وطلبتُ منه ألا يدس أنفه في أمور وقضايا لا يفقهها، ففغر فاه مستغربًا دفاعي المستميت عن شرذمة كان كثير من العمانيين آنذاك يتلذذون بأكل لحومها ميتة.. أستطيع القول إنه رغم الكثير من الاختلافات في زوايا النظر إلى الدين والحياة والأشياء بيني وبين بسيوني التي

تصل أحيانًا إلى أن يتحول نقاشنا الهادئ إلى صراخ، إلا أن شعرة معاوية بيننا لم تنقطع، وأزعم أن لي دورًا في ذلك، فعندما كنتُ ألاحظ تشنجه أثناء إصراره على إقناعي برأيه كنتُ أكتفي بهز رأسي علامة الموافقة وكأنني اقتنعت أخيرًا، علاوة على أنني من القليلين الذين يستمعون إليه بصبر حتى ينهي كلامه، وأظنه بات يقدر ذلك، فصار يبوح لي بكثير من أسراره الشخصية.. لكن هذا لن يمنعني أن أقول إن السنوات الخمس التي قضيتها بصحبته كافية لتجعلني أحكم عليه أنه متعصب.. ليس لأفكاره فقط، بل حتى لمذهبه، وإن حاول إخفاء هذا التعصب.. وإلا فما معنى أن أدخل عليه «القن» في نهار الثلاثين من رمضان لأجده يأكل تفاحة، وعندما سألته: «انته مش صايم يا شيخ؟!» أجاب: «الناس كلها شافت الهلال إلا انتوا يا العمانيين هلالكم ما هلش»، لم أرتح للهجته التهكمية تلك فقلتُ له: «احنا نتبع علم الفلك اللي ما يخطئ، واللي يقول إنه مستحيل نشوف هلال شوال في عُمان ف ليلة أمس».. ابتسم بسخرية وقال: «أمال السعودية شافته ازاي؟!». قلتُ: «ما سمعت يا شيخ عن حاجة اسمها اختلاف المطالع؟!».. رد بالابتسامة الساخرة نفسها: «وهي مطالعكم لازم يعني تيجي مخالفة لإجماع المسلمين؟!.. مش البحرين والإمارات والكويت وقطر عيّدت على السعودية؟!.. وإلا انتو يعني على راسكم ريشة؟!».. كظمتُ غيظي وقلتُ: «كمل يا شيخ.. عمان والمغرب وباكستان وأندونيسيا وبنجلاديش ودول كثيرة ما عيدت مع

السعودية.. وبعدين النبي قال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» ما قال: «صوموا لرؤية السعودية وأفطروا لرؤيتها»، وهنا هتف كمن عثر في كلامي على لُقْية: «بص.. وقعت بلسانك.. النبي قال صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته.. ما قالش أعلنوا يوم العيد قبليها بعشرة أيام.. قال أيه.. الفلك قال!»، قلتُ: «علم الفلك اليوم صار دقيق جدًا يا بسيوني، ويمكن يحدد لك مش فقط هلال العيد، بل حتى مواقيت الصلوات، ومع ذلك احنا في عُمان ما أهملنا جانب الرؤية، والقرار النهائي ما جاء إلا بعد اجتماع لجنة الرؤية قبل العيد بيوم».. ولأنه لا يمكن لبسيوني سلطان أن يستسلم في نقاش جدلي كهذا فقد قال: «طب ممكن.. تفسّر لي حضرتك ازاي من تلات أربع سنين بس، وبعدما أعلنتوا هلال ذي الحجة لوحديكم، جيتوا بعد أربعة أيام وحولتوا تاريخكم على تقويم السعودية؟!.. مش ده معناه اعتراف بالخطأ؟!»..

في هذه لم أستطع الرد.. فكيف لي أن أقنع بسيوني أن ذلك لم يكن اعترافًا بالخطأ بقدر ما هو التخبط بعينه، فقد كانت عُمان على مدى تاريخها تتبع رؤيتها الخاصة للأهلة، والناس راضون في ذلك ومقتنعون، فإذا بالدولة بعد ذلك تقرر أن تتبع تقويم أم القرى فجأة وتتخلى عن تقويمها، فقلنا لا بأس، واستمر ذلك سنوات ورضي الناس وتعودوا، وفجأة إذا بها تقرر أن تعود إلى تقويمها مرة أخرى وتتخذ الحزم ضد كل من يخالف ذلك التقويم حتى وصل الأمر إلى تدخل الأمن، وقد وضعت الدولة كل ثقلها

وراء الأمر وصدر بيان عن مجلس الوزراء يؤكد صحة التقويم وصحة اتباع الحسابات الفلكية الدقيقة وركزت وسائل الإعلام العمانية على الإشادات العالمية بالسلطنة لأسلوبها واتباعها النهج العلمي في إثبات الأهلة، وصدر بيان عن مجلس الشورى يؤيد هذا الاتجاه، وظهر سماحة الشيخ المفتي في برنامج خاص قدمه الدكتور كهلان الخروصي باسم «ويسألونك عن الأهلة»، وأعيدت الحلقة في الإذاعة والتلفزيون غير مرة، وكأنّ الأمر انتهى ولا عودة إليه، وتقبل الناس الفكرة.. ولكن لم تكد تمر سنة واحدة حتى تراجعت الدولة عن قرارها بطريقة غير مقنعة أبدًا، إذ اجتمعت اللجنة ونُقِل الاجتماع على الهواء والكل قال ما عنده وصدر بيان بعدم ثبوت رؤية هلال ذي الحجة مثلما هو متوقع ورضي الناس بذلك، فإذا بالعمانيين يفاجأون بأن الدولة تُغيّر من تاريخها مرة أخرى وتتبع تقويم أم القرى بعد مرور أربعة أيام كاملة وكأننا كنا نشهد فصلًا مسرحيًا ونحن نتابع النقل التلفزيوني عن الأهلة، ولم نعد نعرف أين الخطأ هل في علمائنا أم في حكومتنا أم في علم الفلك نفسه!، وهل القرار سياسي أم ديني أم عاطفي!..

تلك على كلّ حال كانت فرصة ذهبية لبسيوني لينفس عن تعصبه المذهبي، تمامًا كما فعل ذات يوم منذ ثلاث سنوات عندما نشرتْ الجريدة في صفحتها الأخيرة خبرًا عن جريمة قتل في الباطنة لأحد تجار الذهب بينما هو يصلي العصر.. كان بسيوني يقرأ لي الخبر وهو يردد بأسف: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. العمانيين بيقتّلوا في بعضيهم!»

قلتُ معلقًا: «وأيش دراك أن القاتل عُماني إذا كان ما معروف لحد الحين!.. وعمومًا القتيل محظوظ أيًا كان من قتله، لأنه قُتِل وهو يصلي، إن شاء الله هو في الجنة، أما القاتل ففي النار» رد مباشرة بنبرة شبه ساخرة: «أيوة.. خالدًا فيها أبدًا زي ما بتقولوا انتوا الأباضية».. قلتُ: «يا شيخ، أيش دخل الاباضية الحين!.. أي واحد يقتل مسلم وهو يصلي ويموت القاتل من غير ما يتوب أيش تتوقع مصيره؟!.. أكيد حيكون خالدًا في النار» رد بصرامة: «ما حدش يقدر يجزم بكده.. ده ربنا رحمته واسعة»، قلتُ: «ونعم بالله، بس من علامات رحمة ربنا بالقاتل أنه يهديه للتوبة قبل ما يموت، مش يموت وهو قاتل ومش تايب وبعدين يدخله الجنة!».. قال بتهكم: «ده كلام الأباضية».. شعرتُ بالغيظ الشديد فتلوتُ عليه بترتيل الآية 93 من سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾... ثم قلتُ: «هذا كلام ربنا، مش كلام الأباضية».. ثم توجهتُ إلى مكتبة الجريدة وفتحت المجلد الثاني من «في ظلال القرآن» وألقيت نظرة سريعة على تفسير هذه الآية.. وعدتُ إلى بسيوني وفي يدي الكتاب وسألته: هل سيد قطب أباضي؟!.. لم يرد، وكأنه فهم مغزى سؤالي.. قرأتُ عليه ما كتبه قطب في تفسير تلك الآية:

«... والحالة الرابعة هي القتل العمد. وهي التي يستبعد السياق القرآني وقوعها ابتداءً. فليس من شأنها أن تقع. إذ ليس في هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوي دم مسلم يريقه

مسلمٌ عمدًا. وليس في ملابسات هذه الحياة الدنيا كلها ما من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بالمسلم إلى حد أن يقتله عمدًا. وهذه العلاقة التي أنشأها الإسلام بين المسلم والمسلم من المتانة والعمق والضخامة والغلاوة والإعزاز بحيث لا يفترض الإسلام أن تخدش هذا الخدش الخطير أبدًا»، إلى أن وصلتُ إلى قوله: «إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب - بغير حق - ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة، التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم. إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها. ومن ثم قرنت بالشرك في مواضع كثيرة؛ واتجه بعضهم - ومنهم ابن عباس - إلى أنه لا توبة منها».

لا أعرف إن كان بسيوني قد اقتنع بهذا التفسير أم لا، ولكن ما أعرفه حقًا أن لديه عقدة خفية من الأباضية لا تظهر إلا في ساعات غضبه أو دخوله في نقاش حاد.. فمرة عاتبني على استقدام المصحح التونسي عبدالمجيد أبو المقويات زاعمًا أنه «جاهل» وله أخطاء فادحة في التصحيح، متهمًا إيانا نحن العمانيين أننا نجامل التونسيين لأنهم أباضية!.. ألم يجد سببًا آخر لنجامل التونسيين غير هذا؟!.. ثم إن عبدالمجيد هذا ليس أباضيًا، بل هو مالكي من بنزرت، أما جزيرة جربة التي هي معقل الأباضية في تونس فإن عبدالمجيد لم يزرها حسبما يقول سوى مرة واحدة في حياته في رحلة مدرسية عندما كان تلميذًا.. كما أنه مثقف ومتضلع من اللغة أكثر من بسيوني.. ولكن الشيخ محمد يحقد عليه لأن أبا المقويات سريع العطب بعكس

السوداني الحليم عثمان الميرغني.. وعندما يغضب عبدالمجيد فإنه يكيل الصاع صاعين لبسيوني.. مرة كان أبو المقويات منتدبًا للعمل كمصحح في مكتب الجريدة في صلالة، فاتصل به بسيوني من مسقط ذات صباح وقال له بدون سلام ولا مقدمات: «انته ازاي بتغش الموظفين في الجريدة وتقدم لهم مقويات جنسية فالسو يا جاهل؟!».. لم يرد أبو المقوّيات، بل أغلق الهاتف بسرعة، ولم يشاهد بسيوني احمرارَ وجهه من الغضب.. ولكنه فوجئ به في اليوم التالي يدخل ميدان التحرير ويمسكه من خناقه والشرر يتطاير من عينيه، ولولا سترُ الله وتدخُّلُنا لِفضِّ الاشتباك لما كان بسيوني اليوم في غيبوبة، لأنه سيكون قد ذهب إلى جوار ربه!.. بصعوبة شديدة ترك عبدالمجيد خناق بسيوني وهو يردد: «رد بالك.. لا تدخّلْ ايدِك للمغَاغيرْ لا تلسعكْ لِحنوشهْ».. علمنا بعد ذلك من مدير مكتب الجريدة في صلالة أن عبدالمجيد طلب في يوم الواقعة ـ وبعد مكالمته مع بسيوني مباشرة ـ إجازة اضطرارية وخرج ليستقل باص النقل الوطني المتوجه من صلالة إلى مسقط، متجشّمًا عناء رحلة استمرت اثنتي عشرة ساعة، لا لشيء إلا لينتقم لكرامته التي أهدرها بسيوني كما يقول.. ويا لها من كرامة مهدورة أن تتهم أبا المقويات بأنه ليس أبا المقويات ولا أخاها ولا حتى ابن خالتها!.. كلاهما ـ بسيوني وعبدالمجيد ـ محظوظان برئيس التحرير الذي يحتاج إليهما كليهما، الأول لتقوية ابنه دراسيًا، والثاني لتقويته هو جنسيًا.. ولذا فلم يتخذ ضدهما أي إجراء، واكتفى بعقد

جلسة مصالحة بينهما في مكتبه.. وعند استقصائنا فيما بعد جذر المشكلة عرفنا من بدر الغداني مخرج الجريدة أن بسيوني كان ينصت باهتمام ـ رغم أنه كان يتصنع عكس ذلك ـ لوصفة عبدالمجيد المقوية التي كان يسردها لبدر: «عسل طبيعي مع المكسرات: لوز وفستق وبندق وجوز، وإكليل الجبل، والمرقادوش، وزيت الزيتون الطبيعي.. اخلطها معًا واشرب منها ثلاث ملاعق في الصباح يوميًا لمدة 21 يومًا».. يقول بدر إن الوصفة نجحت لديه، ولكن يبدو أنها لم تصادف النجاح نفسه لدى بسيوني الذي تعرض بسبب بحثه عن المقويات الجنسية لأكثر من مقلب.. أحد أشهر هذه المقالب كان بعد أن علم عبدالمجيد أن بسيوني سلطان يُصغي باهتمام إلى وصفاته الجنسية التي يقدمها للزملاء، وأحيانًا يُخرِج ورقة خلسة ويسجلها.. ذات يوم وبعد أن خرج بسيوني من «قنّه» البعيد ليقدم الأوراق التي صححها إلى المحررين، وما إن وصل إلى ميدان التحرير حتى انبرى سالم الخنصوري ليشكر أبا المقويات بصوت مسموع:

ـ أشكرك يا أستاذ عبدالمجيد على الوصفة الجميلة.. ها اليومين حاس إني مثل الحصان.

رد زروقي: «يعيّشك.. بس انتي واظب عليها، كل يوم قنينة في الصباح وقنينة في الليل، وان شاء الله بش تصبحو كي البغل».

قال الخنصوري: «والجميل إنها متوفرة في كل بقالة

ورخيصة.. مجرد ما قلت للبياع عطيني غرشة حلول عطاني ياها ف غمضة عين».

قال عبدالمجيد «انتوا يا العمانيين أذكيا برشا.. سميتوها حلول لأن بيها كل الحلول».

في اليوم التالي غاب بسيوني عن الدوام على غير عادته، وعندما حضر في اليوم الذي يليه عرفتُ منه أنه قضى يومًا كاملًا في حمام شقته في الحمرية، يجاهد الإسهال الشديد الذي أصيب به بسبب شربه قنينة المسهّل كاملة!.. ومع ذلك فهو لا ينفك يتباهى بقوته الجنسية وقدرته على الزواج من أربع دفعة واحدة، عازيًا ذلك إلى الثوم الذي يسميه أكبر فياجرا طبيعية في العالم.. أحيانًا يراودني شعور - وأستغفر الله من سوء الظن - أن بسيوني يعيش مراهقة متأخرة، فهو كثير السؤال عن الزميلات: «فلانة متجوزة؟»، «أمال فين فلانة اليوم؟»، «ماله بطنها كبير كده؟! هي حامل ولا أيه»، بل إنه كان يجد سعادته يوميًا في إعداد الشاي لزميلتنا زينب العجمي، التي لعلها اطمأنت إليه لأنها كانت تظن أن اهتمامه بها هو لشعور أبوي وهو الذي يكبرها أقله بربع قرن، مع أنني لم أسمعه يومًا خلال هذه السنوات الخمس التي عاشرتُه فيها يخاطب أيًا من الزميلات بكلمة «ابنتي» كما أفعل أنا.. مرة فتح لي بدون سابق مقدمات موضوع فحولته الجنسية الطافحة وبأنه يفكر أحيانًا في الزواج على زوجته الحاجة.. «الآن يا شيخ يا محمد؟!.. سبحان الذي يغير ولا يتغير، قبل ثلاث سنوات فقط كنا نتجادل حول تعدد الزوجات»، كان ضد

هذا التعدد وأنه مضر بحياة الإنسان، وكنت أرد عليه بكلام الشيخ سيد قطب رحمه الله إن الله لا يمكن أن يهب شيئًا باليمين ليأخذه باليسار.. ولكنه بمرور الوقت ومع تقدم زوجته في السن وبلوغها السبعين، واضطرارها إلى قضاء وقت طويل في مصر لتكون بالقرب من ابنتيه اللتين تدرسان في جامعة القاهرة، باتت رغبته العارمة في الجنس تقض مضجعه، خصوصًا وأن من كان متدينًا مثله لا يمكن أن يقضي وطره بطريقة محرمة، مرة قال لي: «عارف يا أستاذ داود.. أنا في مصر درّست ملكات جمال، وكنت أوسم وأشيك مدرّس في المنطقة كلها، والبنات كلهم بيتمنوا نظرة واحدة مني، بس عمري ما فكرتش أزني بواحدة فيهم، ومرة دعيت ربي وقلت: يا رب إن كنت كتبت علي أزني فخدني قبل لا أزني».. قلتُ له: «الشرع أحل الزواج لمن كان مثلك» رد: «أيوه.. بس الحاجة ربنا يهديها حساسة قوي».. قلتُ له مازحًا: «ليش ما تتزوج متعة؟»، رد منفعلًا: «أنا؟!.. أعوذ بالله.. ده زنى صريح». وبعد عدة أيام كان في قِنّه يصحح بعض الأوراق، وكان وجهه شاحبًا يبدو عليه الحزن.. سألتُه: «ما لك يا شيخ»؟ قال بصوت خفيض وهو يتلفت وراءه مخافة أن يسمعه أحد: «ابني مهدد بالسجن، وأنا مهدد بعدم تجديد عقدي.. أنا عارف، المشاكل ما تهلش عليّه إلا لما أكون مشتهي الستات قوي»، قلتُ له مواسيًا: «إن شاء الله ابنك بيطلع براءة، ورئيس التحرير بيجدد عقدك مثل ما جدده السنة الماضية واللي قبليها، هونها وتهون»، ثم لم أشأ أن أترك

الطُعْم الذي رماه لي دون أن ألتقطه، فسألتُه وأنا أضحك: «وانته يا شيخ مشتهي الستات قوي؟!»، رد علي بسرعة: «آه، ما أنا قلت لك.. ربنا وهبني قوة جنسية كبيرة تكفّي عشرة.. أعمل بيها أيه دي بدون ستات؟!»، صمت قليلًا ثم أضاف: «امبارح رحت للأستاذ حسين الموسوي وسألته بالمفتشر كده: هل يجوز للسني أن يتزوج شيعية زواج متعة؟». سألته: «وبأيش رد عليك؟».. قال بسيوني: «يا ريته ما ردش الشيعي ده.. قال أيه حلال عليهم همه، حرام علي أنا!»، قلتُ مستوضحًا: «كيف؟ إذا كان ربنا يقول في كتابه العزيز: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، وهذي الآية مش الشيعة بس اللي فسروها بزواج المتعة، بل حتى بعض السنة أيضًا».. قال بسيوني: «ما أنا قلت له نفس كلامك ده، واستشهدت بنفس الآية.. بس هو بيقول إنه ما دام السني بيحرم أصلًا زواج المتعة ويعتبره زنى فده معناه أن الشيعية كمان مش ممكن تحل له، قال أيه الست على دين جوزها، وقد يمنعها من التعبد بما تعتقد به في صلاتها وصومها وحجها وزكاتها وخمسها وغيرها من سائر العبادات والشعائر، وعلشان كده يُمنع من أصله درءًا وسدًّا له ويحرم الإقدام عليه من كلا الطرفين.. أنا أمنعها تعبد ربنا؟!.. تصور يا شيخ داود»!..

- 4 -

المصحح السوداني: أنته أصلًا فلول وما لكش دعوة بالثورة

حتى ولو اضطررتُ إلى العمل مناوبتين في اليوم فلن أدع أحدًا في الجريدة يشعر بغياب الأستاذ بسيوني شفاه الله وعافاه.. نحن أخوة والدم لا يمكن أن يصير ماء مهما كان.. صحيح أن بسيوني استغل مرضي السنة الماضية وحاول إحضار مصحح آخر من أقربائه خلال غيابي، لكني لستُ مثله على كل حال.... كما أن الرزق بيد الله، وعلى رأي المثل السوداني «إلجاياك ما بتختاك».. كم أتمنى الآن أن أعرف هذا الحقير الذي لم يكتفِ بترويع بسيوني وهو آمن في بيته بل تبعه بالورد حتى سريره في المستشفى، أي أنه يقتل القتيل ويمشي في جنازته.. شفاك الله يا أستاذ بسيوني.. بالله الزول ده عجيب.. دائمًا كان يحاول استفزازي وإشعاري أنني أقل منه فهمًا ومنزلة، ومع هذا لا أذكر أنني غضبتُ منه خلال هذه السنوات الأربع سوى مرتين.. إحداهما كانت قبل رقدته هذه بحوالى ثلاثة أسابيع، عندما دخل عليَّ في صالة التحرير التي يسميها العمانيون «ميدان التحرير» وهو يقهقه، في مشهد نادر لم أشهده من قبل.. مجرد أن يبتسم بسيوني المتجهم دائمًا وأبدًا كان يعني لي أن الشمس أشرقت من مغربها فكيف به وهو يقهقه!!.. سألتُه: «خير يا شيخ ضحكنا معاك أضحك

الله سنك».. أوقف قهقهته فجأة وجلس على الكرسي واضعًا رِجْلًا على رجل وقال: «هو النهارده كم التاريخ عندك؟»، شعرتُ أن وراء الأكمة ما وراءها، فمن غير المعقول ألا يعرف بسيوني تاريخ اليوم ولكنني أخذتُه ـ كعادتي ـ على قدر عقله وأجبت:

ـ اليوم هو السبت 30 يونيو 2012.

ـ ومبارح؟

كظمتُ غيظي وأجبت:

ـ مبارح هو الجمعة 29 يونيو 2012.

وهنا عاد إلى قهقهته وقال وهو يغالب الضحك: «بعد سنة ونص من ثورة 25 يناير، وثورة تونس، وليبيا، واليمن وسوريا، والبحرين، إخوانّا السودانيين انتبهوا إنه فيه ثورات عربية وخرجوا ف مظاهرات!!»..

احمرّ وجهي غضبًا ولكني مارستُ مع نفسي أقصى درجات ضبط النفس.. يعرف بسيوني أكثر من غيره أن تظاهرات أمس ليست الأولى في السودان، وأنها ليست تظاهرات كبيرة لكي يُلحقها زورًا وبهتانًا بالثورات العربية.. قلتُ متصنعًا الهدوء وأنا أحدجه بنظرة تعمدتُ أن تكون استعلائية: «بالله يا زول أحسن لك تروح تنوم.. إحنا ملتفين خلف قيادتنا.. والبشير مش زي مبارك».. رد باستهزاء:

ـ أيوه.. أصل مبارك ما طلبتوش محكمة الجنايات.

ـ أيوه. اظهر وبان عليك الأمان.. دلوكيت اتضحت نواياك ياللي بتردد نفس أسطوانة الأمريكان.

ـ أمـريـكـان أيـه وصـعـايـدة أيـه؟!.. حـق بـطـلـوده واسمعوده.. هو أنا اللي قسمت السودان سودانين والتالت في الطريق؟!!

ـ ما هو لولا تخليكم انتو ياللي بتسموا نفسيكم عرب عن السودان ما كان السودان اتقسّم.

ـ طب سيبك من الكلام ده.. إحنا بنسمي الجُمَع بتوعنا جمعة الغضب، جمعة النصر، جمعة الفرصة الأخيرة، جمعة تقرير المصير، وحضراتكم ما لقيتوش تسموا جمعتكم إلا «لحس الكوع»؟!..

قلتُ وأنا أعض على حروفي من الغيظ:

ـ الأحباش والأوباش اللي عملوا المظاهرة خدوا الاسم من الدكتور نافع الله ينصره لما قال ليهم: «عايزين تسقطوا البشير؟!.. لما تلحسوا كوعكم.. إحنا بنحب البشير يا زول ومش دايرين زي غيرنا نقلد التوانسة»،

قال منفعلًا وهو يرفع سبابته في وجهي:

ـ المصري ما يقلدش.. المصري من أيام الفراعنة والناس هي اللي بتجري وراه وتقلده.. ولولا مصر وثورة 25 يناير ما كنتوش تتجرؤوا ترفعوا أصواتكم وتمشوا في مظاهرات».

لحسن الحظ دخل الأستاذ عبدالمجيد زروقي «أبو المقويات» في الوقت المناسب وقال:

ـ في الزمان المعكوس، الذنابي تولّي روس، ويسكت المنيار ويتكلّم الخنفوس.

ولأن هذه لهجة تونسية قحة فإنني شخصيًا لم أفهم شيئًا.. ولكن بسيوني فهم على ما يبدو الكلمة الأخيرة:

ـ والله محدش خنفوس غيرك انته يا بتاع المقويات الفالسو.

نظر إليه عبدالمجيد باستهزاء وقال:

ـ فاش تخرّف يا بسيوني؟!.. إلّي ما قْرا ما دْرَى وإلّي ما تجوّل ما رَا.. تونس.. وما أدراك ما تونس.. بلاد بوعزيزي ومهد الربيع العربي.. وانتوا يا مصاروة لولانا كان بش تقعدو غدوة مهمومين مش عارفين تتخلصوا من حسني.

هتفتُ شامتًا وأنا أقهقه: ينصر دينك يا أستاذ عبدالمجيد.. خليت خشمه ملح ملح.

رد بسيوني بسرعة:

ـ أنته أصلًا فلول وما لكش أي دعوة بالثورة التونسية.

ـ إش يا ذبانة مافمة في الدنيا كان أنا.. وانتي برشة ليك دعوة؟!.. انتي حالك وحال الثورة المصرية كي المثل التونسي الّي يقول: قالوا للبغل شكون بوك، قاللهُم الحصان خالي.

غضب بسيوني وقال لزروقي: «اخرس يا معفن».

وما هي إلا ثوان حتى اشتبك الرجلان بالأيدي لدرجة أنني لم أنتبه مَنْ مِنهما الذي أسقط عمامتي البيضاء عندما كنتُ أحاول التفريق بينهما.

كانت تلك المرة الثانية التي أغضب فيها على بسيوني، أما الأولى فهي واقعة شهيرة أطلق عليها الزملاء لاحقًا «موقعة مقتل».. فقد دأب بسيوني أثناء تصحيحه الصفحة الأولى من الجريدة في تصحيح كلمة «مقتل» التي تتكرر كثيرًا في الأخبار إلى «قَتْل»، فإذا ما مر عليه مثلًا خبر يقول «مقتل عشرين راكبًا في حادث تحطم طائرة» فإنه يحولها تلقائيًا إلى «قَتْل عشرين راكبًا».. يحدث هذا فقط في مناوبته، أما في مناوبتي وبقية المصححين فإننا نترك الخبر كما هو «مقتل عشرين راكبا»، وذات صباح دخل عليَّ في قسم التصحيح وهو مستشيط غضبًا.. أراني الصفحة الأولى التي بها بنط عريض يقول «مقتل أكثر من 80 شخصًا في اليوم السادس لقصف حمص»، يعرف بسيوني أن البارحة كانت مناوبتي أنا في الليل، فَرَدَ الصفحة أمامي وقال: «مقتل أيه اللي انته جاي تقول عليه؟!» ولأن حكمتي المفضلة في الحياة هي البيت الشعري: «ليس الغبي بسيد في قومه / لكن سيد قومه المتغابي» فقد تغابيت وسألته: «شنو قصدك يا زول؟».

ـ انته مش عارف إن «مقتل» معناها مكان القتل؟

ـ لا بالله يا زول مش عارف.

ـ ما سمعتش حاجة اسمها: «ضربه في مقتل»؟.. يعني ضربه في مكان القتل، رقبته مثلًا.

ـ سمعت يا شيخ، لكن ما ليها علاقة بالجملة لأن «مقتل» هنا مصدر ميمي.

ـ لا ميمي ولا زوزو.. دي هنا المفروض تكون «قَتْل ثمانين شخصًا»، افهم بقا.

ـ يا شيخ.. عندما نقول: «أرسل الجيش كتيبة لقتل الأعداء» فإننا نستخدم هنا المصدر «قَتْل» وليس «مقتل» لأن فعل القتل لم يتحقق بعد وما زال في علم الغيب.. ولكن إذا ما نجحت هذه الكتيبة في الوصول إلى غاية القتل ومنتهاه فقتلت مثلًا ثمانين شخصًا في حمص فإننا نستخدم عندها المصدر الميمي فنقول: «مقتل ثمانين شخصًا» لا «قَتْل ثمانين شخصًا».. فهمتَ يا زول؟

ـ لا ما فهمتش.. ومش واحد جاهل زيك انته اللي ح يفهمني أنا اللغة العربية. وإلا يعني فاكرني واحد أهبل زي عبدالمجيد أبو مقويات فالسو؟!!

هنا شعرتُ بالغضب الشديد فرددتُ عليه:

ـ أبلم مو شقي، شقي إلبتكلم معاه.. بالله انته الجهل بذاتو..

وما هي إلا لحظات حتى أمسك بخناقي وهو يصك أسنانه صكًا: «أنته بتقل أدبك عليّه يا جاهل؟!».. وكاد يقتلني لولا أن أنقذتني العناية الإلهية بقدوم سالم الخنصوري الذي رآنا مشتبكَيْن فقرر أن يفض اشتباكنا بطريقة مبتكرة، حيث صرخ بأعلى صوته: «جمال

عبدالناصر» وكأنه علي بابا يهتف أمام المغارة: «افتح يا سمسم»، فكان أن ارتعشتْ يد بسيوني وأرخت قبضتها، وتحول بسيوني كليةً عني ليتفرغ للخنصوري.

بحكم أقدميته كان بسيوني يتصرف في الجريدة كرئيس لقسم التصحيح رغم عدم صدور قرار رسمي بهذا الخصوص.. فقد كان يوزع العمل عليّ وعلى زملائي المدققين العمانيين والمدقق التونسي عبد المجيد.. ويستأثر بسيوني عادة لنفسه بتدقيق الملحق الديني لأنه يعتبر نفسه المرجع الديني للجريدة، خصوصًا وأنه كان إلى وقت قريب يؤم موظفي الجريدة في الصلاة، قبل أن يضرب عن صلاة الجماعة نهائيًا بعد تقديمنا للصلاة ـ في غيابه أولًا، ثم في حضوره بعد ذلك ـ المصحح العماني الشاب مبارك المقبالي.. سمعتُه يقول للشيخ داود الحراصي رئيس القسم الديني إن قراءة مبارك للقرآن خاطئة، ولكن في الحقيقة هذا افتراء، فالشاب واضح أنه حافظ للقرآن جيدًا ومخارج حروفه سليمة وتلاوته جميلة، وجميعنا صلينا وراءه دون أن نلاحظ عليه خطأً لغويًا واحدًا.. ولكن السبب الحقيقي أن المقبالي دعا بعد الصلاة في المرة الوحيدة التي صلى فيها بسيوني خلفه فقال في دعائه: «اللهم امكر لنا ولا تمكر علينا» فقاطعه بسيوني بصوت عال: «أيه؟! انته حتكفر ولا أيه؟!.. مين قال لك إن ربنا مكّار!».. لم يرد مبارك عليه بشكل مباشر، بل واصل دعاءه في هدوء وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، وصمت بسيوني عندما لاحظ جميع المصلين ينظرون إليه بامتعاض.. وعندما

عدنا إلى صالة التحرير كان بسيوني يروح ويجيء في الصالة بتوتر طفل صغير ارتكب خطأً وينتظر من والديه العقاب، وعندما رآنا متجاهلين ما جرى تمامًا نظر إليَّ وخرج عن صمته: «شفت العيّل اللي صلى بينا ازاي قل أدبه على ربنا؟».. قلتُ له وأنا أغلي من الغيظ: «الشاب ما قل أدبه ولا يحزنون.. هذا دعاء مأثور عن سيدنا محمد.. أشلون تكون خريج أزهر وما مر عليك؟!».

ـ أنا خريج أزهر غصبًا عنك وعنه.. ده وصف ربنا بالمكر.. ما يصحش.. لازم يتأدب في مخاطبة ربنا.

لم أرَ بسيوني في مصلى الجريدة بعد هذا اليوم، وأنا الذي كان لقائي إياه لأول مرة في هذا المصلى في أول أيام وظيفتي هنا.. أذكر أنه حينما علم أنني مصحح جديد في الجريدة أخذني من يدي إلى صالة التحرير.. أخرج من جيبه قارورة عطر يقول إنه هو الذي صنعه بنفسه من الياسمين الذي في بيته وعطرني به.. كانتْ رائحته غريبة، هي أقرب إلى الحلبة منها إلى الياسمين.. وكنا وحيدَيْن في الصالة عندما قال لي إنه أحبني في الله ولذا فإنه يرى أن من واجبه أن ينبهني إلى أمر مهم: «شوف بقا يا أستاذ عصمان.. حاول قدر الإمكان تخلي مسافة بينك وبين العمانيين.. ما تغركش ابتساماتهم.. دول منافقين.. بيهشوا ويبشوا في وشّك وما تخفي صدورهم أعظم.. اسألني أنا.. ده أنا خبزتهم وعجنتهم تلاتين سنة.. أوعى تكتّر في الكلام معاهم.. ولو كان عندك وقت فاضي إملاه بذكر الله»..
اكتشفت بعد ذلك بشهرين أنه وجه النصيحة نفسها إلى

زميلنا المصحح التونسي عبدالمجيد في أول أيام وظيفته.. ولكن العجيب في الأمر أن الأستاذ بسيوني لا يبدو أنه يطبقها على نفسه!!. بل إن الأمر الذي صدمني هو اكتشافي لاحقًا أنه يسعى للحصول على الجنسية العمانية منذ سنوات!!. ما أنا متأكد منه بعد هذه العشرة مع بسيوني سلطان أنه غيور بطريقة عجيبة، هو لا يريد أن يكون أحد في الصورة إلاه.. ويسود وجهه وهو كظيم لو أن رئيس التحرير أو أحد الزملاء وجه ثناءً إلي أو إلى زروقي أو إلى أي من المصححين العمانيين، ليس هذا فحسب، بل إنه يغضب لو رآني أضحك مع أي من محرري الجريدة، ولعله يتوهم أن أي تقارب بيني وبين أي منهم ليس سوى مؤامرة تستهدف مكانه في هذه الجريدة.. في الظاهر هو رجل قوي ومصحح ممتاز، ولكن في الجوهر هو ضعيف دون أن يشعر أنه ضعيف، وغضبه الشديد الناجم عن غيرته لا يجعله يرى كم هي الغيرة مذلة لأصحابها، إنه فاقد الثقة بنفسه ولكنه لا يرى ذلك لأن بصيرته يعميها الغضب.. دأب أن يتعامل مع كل ضيف لهذه الجريدة على أنه خطر محتمل عليه، حتى وإن كان مجرد زائر موقت.. أذكر مثلًا امتقاع لونه وهو يشاهد الترحيب الحار والأحضان والقبلات التي استقبل بها جميع موظفي الجريدة تقريبًا ابن بلاده المصحح المصري العجوز السابق الشيخ عبدالعاطي.. كان هذا مصححًا في الجريدة منذ عشر سنوات قبل أن يغادر إلى مصر، وعندما عاد إلى عُمان في زيارة عابرة لم تدعه نفسه يترك عُمان دون أن يسلم على زملائه السابقين، فكان أن

زارهم في الجريدة.. أنا أيضًا ـ كبسيوني ـ لم أكن قد التحقت بالجريدة بعدُ أيامَ كان الشيخ عبدالعاطي مصححًا فيها، ولكني احترمتُه كثيرًا لما رأيتُ الحب الذي أغدقه عليه زملاؤه القدامى وكأنه لم يبعد عنهم عشر سنوات.. لعل بسيوني استشعر خطرًا من كل هذا الحب.. لا شك أن التساؤل الحارق الذي دار في خلده لحظتَها: «لماذا يحبونه إلى هذه الدرجة؟»، وسوف يهرب دون أن يشعر من التساؤل المنطقي في هذه الحالة: «لماذا لا يحبونني أنا؟».. كان الشيخ عبدالعاطي والشيخ داود الحراصي يجولان في ميدان التحرير، وعندما اقتربا من بسيوني قدمه الحراصي لعبدالعاطي قائلًا: «أقدم لك الشيخ بسيوني سلطان خريج الأزهر مثلك»، قال الشيخ عبد العاطي وهو يصافحه: «والله؟!.. إنته أي دفعة يا شيخ بسيوني؟».. هنا سحب بسيوني يده بسرعة وقال بفظاظة: «وأنته مال أهلك؟!.. مع السلامة. أنا ورايا كومة أوراق ما صححتهاش»، ومضى ناحية المخزن الصغير وسط ذهولنا: أنا، وعبدالعاطي، والشيخ داود.. منذ ذلك اليوم بدأ الفأر يلعب في رأسي: بسيوني سلطان لا خريج أزهر ولا يحزنون!..

بالله الزول ده عجيب. ربنا يشفيه ويهديه.

- 5 -

رئيس القسم الثقافي:
اش جاب التفاح للبصل!!

يقول الطبيب إن حالته مستقرة، وإن لم يفق من غيبوبته بعد.. شفاه الله.. في الأشهر الأخيرة توقفتُ عن تحويل صفحات الملحق الثقافي إليه بعد أن توالى غضب الأدباء والكتّاب الذين يُعمِل مبضعه الرقابي في كتاباتهم؟!.. الشاعر خميس الحميدي قرر مقاطعة الجريدة بعد أن شطب بسيوني دون أن يبلغني كلمة «آلهة» من قصيدته، «أيه القرف ده؟!، ده كفر صريح، مفيش إله إلا الله»، والقاص ناصر الرميمي غضب عندما حذف بسيوني من قصته بدون الرجوع إليَّ الكلمتين الأخيرتين من عبارة «وقبلها في فمها».. «كفاية أنه قبلها، يعني لازم يحدد فين!!.. أيه المياعة وقلة الأدب دي!».. بسيوني أفسد علاقتي بالمثقفين، وأنتم تعرفونهم هؤلاء.. إنهم وسط مريض.. التعامل مع أطفال الحضانة أسهل بكثير من التعامل معهم.. لو أمعنتم التأمل في جبين أي منهم ستجدونه مكتوبًا عليه: «أنا سبب رئيسي للسرطان وأمراض القلب والرئة والشرايين».. وأقسم لكم إن أصعب وظيفة في العالم هي وظيفة رئيس قسم ثقافي في جريدة.. هذا طبعًا إذا كان رئيس القسم مخلصًا في عمله وليس كرؤساء الأقسام الثقافية في الجرائد الأخرى.. ملحق المساء الثقافي رغم كل عيوبه الخارجة عن إرادتي إلا أنه

يبقى أهم ملحق ثقافي في البلاد بشهادة الكثير من المثقفين.. أقله لدينا حد أدنى من المهنية، ولسنا كملحق «سماوات» الذي تحول بسبب بخل القائمين عليه وعدم دفعهم للمثقفين إلى ملحق لاستقطاب خواطر المراهقين والمراهقات بحجة تشجيع المواهب الشابة، ولسنا كملحق «فينيق» الذي تخصص في تزلف بعض المحسوبين على الثقافة من موظفي الحكومة النافذين لدرجة أن يخصص صفحة كاملة لـ «نجاح عملية البواسير للشاعر الكبير حمود الجرداني»!، ولسنا كملحق «أفلاج» الذي لا يكاد يخلو عدد من أعداده من دراسة نقدية نفاقية من أحد موظفي الجريدة أنفسهم لديوان رئيس التحرير الذي تحول فجأة من رئيس تحرير إلى شاعر نحرير!، حتى رئيس القسم الرياضي في هذه الجريدة كتب عن جماليات اللعب اللغوي في ديوان «بق» دون مراعاة لأدنى درجات الصدق مع النفس، ناهيك عن المهنية الصحفية!.. ملحق المساء مختلف تمامًا، رغم أن التعامل مع المثقفين هو نوع من الانتحار.. لقد طلبتُ مرارًا من رئيس التحرير أن يعفيني من هذا القرف ويبادلني مع سالم الخنصوري، بحيث أتولى أنا رئاسة قسم المحليات ويضطلع هو بالقسم الثقافي، خصوصًا وأن علاقته بالمثقفين جيدة بحيث يمكن أن تخوله تولي رئاسة القسم الثقافي، ولكنه رفض.. يقول إنه يحتاج إلى سالم للتغطيات والتحقيقات المحلية لأنه خير من يجيدها.. كما أسرَّ لي أن سالمًا مندفع ومتهور، مثله مثل المثقفين، وأن تقريبه منهم هو بمثابة وضع الزيت أمام النار، في حين امتدح تعقلي

وحكمتي وقدرتي على وزن الأمور.. الأمر له علاقة بالسن.. سالم لم يبلغ الثلاثين بعد، أما أنا فأقترب من الأربعين.. بعد الثلاثين يفقد الإنسان دهشته، وتبدأ قناعاته بالتكسّر شيئًا فشيئًا، وما كان مستحيلًا عليه فعله من قبل يجد نفسه يفعله ببساطة شرب الماء.. قبل نحو عشرين عامًا كنتُ نصف متدين ونصف عربيد، لا بأس أن تكون لي علاقة بهذه الفتاة أو تلك، ولكن الشرب خط أحمر.. كان أبي وأمي ينسبان كل موبقات العالم إلى الخمر، ويحذرانني منها أكثر مما يحذرانني من الأفاعي، في حين أن أبي عندما عرف أنني على علاقة قوية بفتاة خارج إطار الزواج رشقني بغمزة رضا ما زلتُ أذكرها حتى اليوم، لعله تأكد أخيرًا أنه خلف امتدادًا له في هذه الحياة.. في قسم الفلسفة بجامعة السلطان قابوس كان لي صديق حميم اسمه إسماعيل اليوسفي يختلف عني تمامًا: أنا متردد، متذبذب، أقدم قَدَمًا وأؤخر أخرى، وأكتفي من الغنيمة بالإياب، أما هو فمتهور، مندفع، عربيد، سكير، مغامر، ذاهب إلى النهايات القصوى للمواقف.. ومع هذا فقد كان متفوقًا في دراسته.. كنتُ حينها قد بدأتُ أقرأ خارج إطار الدراسة، وبدأتْ شخصيتي الثقافية تتشكل.. مرة ونحن مازلنا في سنتِنا الجامعية الثانية، وتحديدًا في نوفمبر 1993، زار عُمان الشاعر الكبير نزار قباني.. دخل عليّ إسماعيل في غرفتي في الوحدة السكنية العاشرة وقال لي بجدية: «أنا رايح فندق (الهوليدي إن) أقابل نزار قباني.. تروح معي؟».. أجبتُه بفرح: «طبعًا أروح.. أنا أمنية حياتي ألتقي

بنزار وأصور معه».. وبينما نحن نقترب من سيارته قال لي إسماعيل كمن يذكرني بشيء مهم: «اعمل حسابك، بما أنه ساكن «الهوليدي إن» ترانا بنعزمه في بار تشيرشل».. هنا خرجتْ كل عقدي من مخابئها، ورأيتُ أبي يحمل لي عصا وهو يحذر: «إلا الخمر يا حسن.. انته عارف إنه بداية النهاية لكل إنسان».. قال إسماعيل: «ما لازم تشرب.. البارات مش أماكن شرب بس، نقاشات، حوارات، تحليلات.. يا أخي اطلب عصير برتقال»، قال أبي: «اياني وإياك يا حسن.. لعن الله مُجالِسَهم».. بعد ذلك بثلاثة أيام ساحت دمعتي على وجنتي وأنا أقرأ في ملحق جريدة عُمان الثقافي اعتذار نزار للعُمانيين: «تأخرتُ عليكم ثلاثين عامًا، ثلاثين جُرحًا، ثلاثين دمعة»، ليس تأثرًا بكلامه، بل تحسّرًا على ضياع فرصة لقائه المباشر، خصوصًا وأنني لم أجد في ليلة أمسيته مكانًا لي في النادي الثقافي، فقفلتُ راجعًا إلى الجامعة مهزومًا مخذولًا، ولم أستطع أن أتبعه إلى أمسية صلالة بعد ذلك بيومين.. واليوم بعد تسعة عشر عامًا من إضاعتي فرصة مقابلة نزار صار إسماعيل اليوسفي أهم روائي في السلطنة، وهو أيضًا من ناشطي الحراك المدني، وله علاقة قوية بمعظم المثقفين.. وأعترف أن ملحقي الثقافي ما كان ليتنوع ويضم كل هذه النخبة من المثقفين لولا علاقتي القوية بإسماعيل الذي كان واسطتي إليهم، بل إنهم صاروا يعتبرونني منهم رغم أنني مازلت ذلك المتردد الذي أدمن مسك العصا من منتصفها: نصف مثقف، نصف فيلسوف، نصف صحفي، نصف ثوري، وأحيانًا أشعر أنني

نصف إنسان.. وحتى القصة الوحيدة التي كتبتُها فدشنتْني في عالم المثقفين لم تكن برغبة وتخطيط مني بقدر ما هي الصدفة المحضة.. فقد كنتُ مكلفًا تغطية الملتقى الأدبي السابع للشباب في مسندم لجريدة المساء.. وعندما وصلتُ إلى الفندق الذي يستضيف الفعالية قال لي موظف وزارة التراث: «للأسف الميزانية ما تسمح بأكثر من ستة صحفيين، وبما أنك السابع فاعذرنا لأنك تأخرت.. ما شي لك غرفة فاضية»، قلتُ: «أفا.. ما يصير.. الشيخ هلال بنفسه متصل برئيس التحرير وطالبني بالاسم، وحتى زميلكم جمعة المفرجي شاهد على ها الكلام».. عندما سمع الموظف اسم الشيخ هلال راجع نفسه وقال بهدوء: «طيب أنا عندي فكرة.. إحنا عندنا مكان شاغر في القصة لأن وحدة من القاصات صار لها ظرف عائلي وما جات.. شو رايك تكتب قصة، وندخلك مكانها؟!».. قلتُ: «موافق».. توجهتُ إلى زاوية منعزلة في بهو الفندق وفتحتُ «اللاب توب» وبدأتُ كتابة قصة «المواطن ع» التي بدأتُها بعبارة: «ثمة أفكار تندلق في رأسي....» سردتُ فيها حكاية رجل بسيط يكتشف بئر بترول في بيته فيستقيل من وظيفته ويقرر أن يعيش من خلال بيع البترول لشركات النفط دون أن تدري عنه الحكومة، إلى أن وشى به مرة أحد أقربائه فقبضت عليه الحكومة وسجنتْه وطالبتْه بدفع كل ما ربحه من بيع النفط.. فازت هذه القصة المكتوبة على عجل بالمركز الأول في ملتقى تلك السنة، ونوهتْ لجنة التحكيم بموهبة كاتبها الفذة، ونُشِرتْ في جميع الصحف، وتلقيتُ عليها

تهاني من كثير من المثقفين.. وعندما أخبرتُ عمي مطر بحكاية القصة ضحك حتى دمعتْ عيناه.. أذكر أنني عندما كنتُ طفلًا في السابعة من عمري زارنا عمي هذا في البيت وسألني مازحًا أيهما تحب أكثر: أباك أم أمك؟.. أجبتُه ببراءة الأطفال: «أحب أمي أكثر».. ولم أصحُ إلا على صفعة قوية من أبي وهو يقول: «انته قليل أدب».. قال له عمي: «حرام عليك.. ليش تضربه مسكين؟».. قال أبي: «إذا ما أأدبه من الحين، متى تباني أأدبه؟!» ثم نظر إليَّ أبي بعد ذلك وقال بحنان مصطنع: «يا الخداجة.. لما حد يسألك: هين تحب أكثر أبوك ولا أمك، قول له أحبهم الأثنين.. فاهم؟».. منذ ذلك اليوم قبل اثنتين وثلاثين سنة وأنا أخاف إذا ما وُضِعتُ في محك اختيار بين أمرين.. والأغلب أنني أختارهما كليهما حتى وإن كانا متناقضين!!.. وصرتُ اليوم أُدمن ما كنتُ أحذره قبل عشرين سنة: التدخين والشرب.. اليوم بات البار عنوانًا ثالثًا لي بعد شقتي في الخوير والجريدة.. فمن لا يجدني في هذين المكانين يمكن الآن ببساطة أن يجدني في بار «تشيرشل» في «الهوليدي إن» أو في حانة «جون بيري» في حياة ريجنسي، أو في حانة الغزال في الانتركونتيننتال، أو في المطعم المكسيكي في مدينة السلطان قابوس الذي لا أذهب إليه إلا حين أشعر بحنين إلى مشروب المارجريتا.. مساء الأربعاء مثلًا هو موعد دائم مع إحدى هذه الحانات، ليس لأن غدًا الخميس إجازة فقط، بل لأن الأربعاء هو يوم صدور الملحق الثقافي، أي يوم القرف الأسبوعي الذي

عليّ أن أحاول نسيانه بالشُرب.. وإذا كان كثير من قناعاتي تكسر مع تقدمي في العمر، فإن قناعة واحدة لم تزل هي هي: الوسط الثقافي وسط مريض، وخير طريقة للتعامل مع المثقفين هي أنْ «زاورهم ولا تجاورهم» كما يقول المثل العُماني.. في يوم صدور الملحق لا يتوقف هاتفي عن استقبال سيل المكالمات العاتبة والرسائل الموبخة: الأديب أحمد حمدون غاضب لأني وضعتُ نصه المقدس في أسفل الصفحة لا أعلاها!!، والمفكر زكريا الرواحي مستاء لأنني وضعتُ مقاله العميق بدون صورته وهو يضع إصبعه على خده الأيسر في الوضع مفكرًا، والكاتبة ليلى أمبوسعيدي غاضبة لأنني وضعتُ لها الصورة التي ترتدي فيها غطاء الرأس الأخضر، وكان عليّ أن أضع تلك التي ترتدي فيها الأزرق ليتناسب مع عنوان نصها «زرقة الورد»!!.. والناقد سعدون الشريقي حانق لأن الأقواس سقطتْ سهوًا من مقاله بسبب التنضيد «إلى متى سنظل في عالمنا العربي ننظر إلى الأقواس بهذه الاستهانة؟!، إذا تكرر هذا الأمر سأقاطع الجريدة».. والقاص سليم الفليتي غاضب لأني لم أفرد لحواره صفحتين في الملحق رغم أن الحوار قصير ولا يحتمل مع الصور أكثر من نصف صفحة.. هذا عدا الإهانات التي أتعرض لها في النادي الثقافي عندما أطلب أوراق المحاضرات قبيل بدء الأمسية، فهذا يرفض إعطائي ورقته حفاظًا على سريتها وكأنه لن يقرأها على الملأ كاملة بعد دقائق!، وذاك ينظر إلي شزرًا وكأنني شحاذ ويقول: «وليش ما تحضر الأمسية وتسجلها بنفسك؟!»، ولا يرضى

أن يقتنع أنني لا أملك ترف الانتظار حتى نهاية الأمسية في العاشرة مساء لأنني مطالب بنشر التغطية في الصباح التالي.. ولو أنني كنتُ محررًا ثقافيًا بلا ضمير لكنتُ أعددتُ خبر الأمسية منذ الظهر وأرحتُ نفسي من هذا العناء!، ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك البتة، ليس لأن ضميري الصحفي لا يسمح فقط، ولكن أيضًا لأني لا أريد أن أشرب من الكأس نفسها التي شرب منها الزميل عبدالوهاب الرزيقي محرر «فينيق» عندما جهز تغطيته منذ الصباح الباكر عن رعاية الوزير الفلاني لتدشين معرض الفنان يوسف البادي، مشددًا على أن الوزير أبدى إعجابه باللوحات واعتبرها نقلة نوعية في تاريخ الفن التشكيلي العُماني، دون أن يكلف هذا المحرر نفسه تجشم عناء الذهاب إلى النادي، ولذا فإنه لم ينتبه أنه في عصر يوم الأمسية صدر مرسوم سلطاني أطاح ذلك الوزير، ما أدى إلى تأجيل تدشين المعرض إلى إشعار آخر.. وقد تعرض الرزيقي إثر ذلك لمجلس تأديبي وتهديد بالطرد من الجريدة إن تكرر خطؤه الفظيع هذا!. .

والقرف لا يأتي من المثقفين فقط، بل يمكن أن يأتي من المدقق اللغوي.. فعندما نشرتُ النص الأدبي للكاتب عبدالله حبيب الذي يتحدث فيه عن ذكرياته وهو طفل في السابعة من عمره عندما ماتت قطته العزيزة ولم يجد ما يعبر به عن حزنه وتقديره لها سوى دفنها أمام الشاطئ بعد أن كفنها بأعز ما لديه وهو ورق مصحف قديم، عندما نشرتُ هذا النص هاج بسيوني وماج وشكاني إلى رئيس التحرير

متهمًا إياي بإهانة القرآن وبأنني الأداة التنفيذية لمخطط ماسوني تآمري على الدين من قبل «الحداثيين، أعداء الله والدين».. حاولتُ غير مرة أن أقنع رئيس التحرير أن يوقفه عند حدّه ويُفهمه أن مهمته هي التدقيق اللغوي فقط وليس الرقابة على النصوص لأنه ليس مؤهلًا لذلك.. في آخر هذه المحاولات استدعاه الأستاذ مرهون إلى مكتبه وقال له بحضوري: «الأخ حسن العامري يشتكي أنك تتدخل في شغله وتحذف كلمات من نصوص ومقالات الملحق من غير ما تنبهه».. رد بثقة عجيبة: «أنا حسأل حضرتك سؤال، وحضرته سؤال.. لو جاوبتوني عليهم يبقى حقكم علي، ومش حتدخل تاني في أي حاجة».. قال رئيس التحرير: «تفضل».

ـ سؤالي ليك يا أستاذ مرهون: هل الكتّاب الحِداثيين دول ملايكة والكلام اللي بيكتبوه قرآن؟

بالطبع كانت إجابة رئيس التحرير بالنفي.. التفت بسيوني إليَّ وسأل:

ـ وأنته يا أستاذ حسن: مش الراجل البرتغالي اللي اسمه سماجارو حِداثي وفايز بنوبل وحضرتك تعتبره أديب كبير؟

كان بسيوني يقصد خوسيه ساراماغو الذي لم أندهش أنه يعرفه، فقد مر عليه كثيرًا في صفحات الملحق في السنوات الماضية.. ولكن المدهش أن يستدعيه الآن في هذه اللحظة التي يُتهم فيها بمعاداة الأدب!

قلت: «تقصد ساراماغو.. نعم.. هو حداثي وفايز بنوبل وأنا أعتبره من أهم الأدباء في العالم.

- الحمد لله.. تبقى وقعت بلسانك.

التفت إلى الأستاذ مرهون وقال:

- أنا عايزكم تشرفوني ثواني مكتبي الصغيّر.

مضى أمامنا دون أن يترك لنا فرصة لنرد.. لم يكن أمامنا إلا أن نتبعه إلى «قنه» لنرضي فضولنا.. وما إن وصلنا حتى أشار إلينا بيده إلى الورقة المعلقة على الجدار:

«إذا مُنِح مصححو بروفات الطباعة الحرية، ولم تعد أيديهم وأقدامهم مقيدة بمعوقات هي أشد حدة من القانون الجنائي فهم قادرون على تغيير وجه العالم، يقيمون مملكة من السعادة في هذا العالم، فيعطون الماء للعطشان، والطعام للجائع، والسعادة للحزين، لأنهم يقدرون على فعل ذلك ببساطة بمجرد تغيير الكلمات»

خوسيه ساراماغو

انفجر رئيس التحرير بالضحك.. أما أنا فظللتُ فاغرًا فمي دهشة واستغرابًا من هذا العدو للحداثيين الذي يعرف كيف يجيّرهم لمصلحته في الأوقات الحرجة!.. ومنذ ذلك اليوم اقتنعت أن الاحتجاج على تدخلاته مع الأستاذ مرهون هو ضرب من العبث.. وما زالت هذه التدخلات تُفقدني كتّابًا للملحق الذي يقول زميلي سالم الخنصوري إنه يمر في

الفترة الحالية بأسوأ فتراته.. وهذا صحيح للأسف.. فالملحق عند صدوره لأول مرةً عام 2006 بمناسبة احتفال «المساء» بمسقط عاصمة الثقافة العربية كان يستقطب ثلة كبيرة من الكتّاب، ما لبثوا أن تناقصوا لأسباب كثيرة منها شح المقابل المادي لنصوصهم وتدخلات رئيس التحرير أو بسيوني.. بعد ذلك بقيت فئة قليلة تواصل الكتابة في الملحق، لدرجة أن رئيس التحرير يتشكى من تكرار هؤلاء الكتّاب بصفة دورية، وكأنه يتهمني ضمنيًا بالشللية، وبعد أحداث فبراير 2011 وانخراط عدد من كتّاب الملحق فيها، وخصوصًا في ساحة مجلس الشورى، انشغلت هذه القلة القليلة بالنشاط المدني أكثر من الكتابة، ومن يكتب منهم فإن كتابته ليستْ سوى مقال غاضب يصب جام نقده على الحكومة بلا تعقّل بشكل لا يمكن لي أن أنشره، ليس لأنني لا أريد ذلك، ولكن لأن رئيس التحرير لا يمكن أن يمرر مقالات كتلك بسهولة.. أنا واضح في هذه النقطة وشرحتها لأكثر من صديق من هؤلاء: أنتم تفهمون غرامشي خطأً حينما تظنون أن المثقف العضوي لا شغل له ولا مشغلة إلا مناكفة الحكومة وتصيّد أخطاء موظفيها وتتغافلون عن رؤية النصف الممتلئ من كأسها.. آخر هذه الجدالات كان مع إسماعيل اليوسفي بعد أن طلب مني أن أوقع بيانًا يدين وكالة الأنباء العُمانية والصحف التي نشرت أخيرًا صور المدانين بالتجمهر والإعابة ومن بينها «المساء» الصحيفة التي آكل منها عيشي!.. قلتُ له إن المثقف يعتمد عليه عامة الناس في التحليل وتقديم رؤية كلية وموضوعية

للأحداث ولذا فإن عليه ألا ينخرط تمامًا في هذه الأحداث لئلا يفقد هذه النظرة الكلية.. فما كان منه إلا أن ذكرني بمقولة مارتن لوثر كنغ عن أن المكان الأكثر اتساعًا في جهنم محجوز لأولئك الذين يقفون على الحياد في القضايا الأخلاقية الكبرى.. قلتُ له بصدق: «أنا معكم ولستُ على الحياد.. نحن نختلف على الطريقة فقط: أنتم تعبرون عن رأيكم ببيانات وأنا أعبر عنه بمقالات».. إسماعيل هذا يلقب في الوسط الثقافي بـ«إسماعيل بيانات»، لأنه ما يكاد يفرغ من بيان حتى يبدأ بتدبيج البيان الذي يليه: مرة إدانة لاعتقالات صحار، ومرة إدانة لضرب الناشطَيْن سعيد وباسمة، ومرة ثالثة لفض الاعتصامات بالقوة، ورابعة لفصل الإعلامي أحمد الشيزاوي من عمله في جريدة الشبيبة، وخامسة لحظر موقع الحارة العمانية، وسادسة لمحاولة إغلاق جريدة الزمن، وسابعة لإدانة المطاوعة الذين هددوا بحرق مسرح حصن الفليج.. إنه لأمرٌ مقرفٌ أن تكون حياتنا كلها بيانات في بيانات.. ويغضبون عندما لا أنشرها في ملحقي الثقافي!!.. هل هي نص لكزانتزاكيس مثلًا؟!.. لحسن الحظ أن إسماعيل هو واجهتهم لديَّ، وهو صديقي ويعلم تمامًا صلابة موقف رئيس التحرير في مثل هذه الأمور، وأنه مَلَكي أكثر من الملك فيما يتعلق بأي نقد أو تجريح للحكومة، ولذلك يلتمس لي إسماعيل العذر في عدم نشر بيانات كهذه، ويتلقى عني سهام الغضب من هؤلاء.. أما المقالات التي أكتبها فإنني أبذل جهدًا كبيرًا في صوغها على النحو الذي يرضي جميع الأطراف ويسمح

بنشرها، وإلا فما فائدة أن أكتب مقالًا ناريًا فيرفض الأستاذ مرهون نشره.. كيف ستصل رسالتي التنويرية حينها إذن؟!.. الخنصوري يكتب مقالات نارية انفعالية فيرفض رئيس التحرير نشرها، ويضطر سالم إلى نشرها إما في الفيس بوك، وإما في جريدة الفلق الالكترونية، ثم يأتيني ليتباهى بأن 4000 قرأوا مقاله في عدة ساعات.. ثم ماذا؟!.. ألم يستدعِه «القسم الخاص» أربع مرات في شهرين؟!.. لماذا يفتح لهم بابًا عليه وهو قادر بما آتاه الله من ثقافة وموهبة كتابية أن يقول ما يريد قوله بطريقة ذكية ولماحة وغير عدائية؟!.. أنا مثلًا ـ ولا فخر ـ أول من كتب مقالًا عن حادثة ضرب المعلمين في الرستاق، ومر المقال دون أن ينتبه إليه قسم خاص ولا عام.. كان ذلك في عدد الثاني عشر من أكتوبر 2011 من الملحق الثقافي أي بعد يومين من الحادثة، كنتُ فيه متوازنًا وغير منحاز إلى طرف ضد طرف، وبدأتُه كالتالي: «برغم كل ما يمكن أن يقال عن الرفض الشديد لملامسة العصا الساحرة مؤخرة الرجل الذي كاد يكون رسولًا، فإننا كمجتمع مسالم لا نرضى إطلاقًا أن ينسى هذا الرجل دوره الرسولي المهم ليرتدي دشاديش ما فُصِّلت على مقاسه أصلًا، بل على مقاس مراهقين صغار لم يفقهوا شيئًا من الحياة بعد».. أذكر أن بسيوني سلطان كان له تعليق سخيف على هذا المقال: «مؤخرة الرجل؟!.. أيه القرف ده!».. كان بسيوني يحرص على تدقيق الملحق بنفسه دون أن يسمح لزملائه المدققين بمساعدته، وذلك للوقوف على آخر شطحات هؤلاء الحداثيين.. ولطالما

حاول نصحي بالابتعاد عنهم لأنهم «أفسدوا اللغة والذوق»، محاولًا إقناعي أن ما يكتبونه ليس أدبًا بل هو «قلة أدب»، ومشددًا على أن هذه النصيحة الذهبية لم تأتِ من فراغ، فهو الأديب الأريب الذي قرأ الأدب ودَرَسَه ودرَّسه وألف وأخرج مسرحيات مهمة مَثَّلها طلبته عندما كان مدرّسًا في منتصف السبعينيات في صحم. «انته عارف يا واد يا حسن (لفظة «واد» لديه هي للتودد وليس للتصغير) كنا في نهاية كل عام دراسي نعمل في مدرسة عبدالرحمن بن عوف احتفال ضخم فيه مسرحية كبيرة أنا اللي أخرجها.. مرة أخرجت مسرحية «الزير سالم» وجبت الوِلاد وحفظتهم ودربتهم.. في يوم العرض الناس كلها انبهرت، المشاهد اللي تكون في النهار تبص تلاقي الإضاءة كلها نهار، ولما بتكون بالليل بتشوف نجوم الليل قدامك.. ولما جا الواد اللي بيشخّص دور جساس وطعن الواد اللي بيشخّص دور كليب في بطنه.. الناس زعقت لما سمعت صوت بطنه بينفجر وشافت الدم بيخُرّ.. حضرة الناظر نفسه قال لي بعد العرض أنه صدق إن الواد قتل زميله.. وكان فرحان والدنيا مش سايعاه وأنا أشرح له إني جبت مادة الآيدين بتاعة الجروح ودهنت بيها الخنجر وخليت بالونة تحت دشداشة الواد.. عارف الكلام ده سنة كام يا حسن؟!.. 1976.. يعني أنا اللي دخلت المسرح في عُمان.. وفيه زمايلي مدرسين سعوديين قالوا لي: والله لو كانت الموهبة دي عندنا في السعودية كان زمانك بقيت مليونير»..

حتى الآن لم أستطع تبين متى يكون بسيوني صادقًا

ومتى «يشلخ».. ولكنني تعلمتُ أن أكون حذرًا وأنا أناقشه في أي موضوع، وأتحاشى الدخول معه في جدال، لأنني أعلم جيدًا ـ وأنا الذي درستُ الفلاسفة السوفسطائيين في الجامعة ـ أن ذلك يعني أن أضيع ثلاث ساعات من وقتي دون أن أزحزح قناعاته قيد أنملة، ولكن مع الوقت، ومع توالي بعض العبارات المهينة من عينة «يا جاهل» أو «اش عرفك انته؟» بدأتُ أتخلى شيئًا فشيئًا عن حذري لأتبادل وإياه الأخذ والرد، كأن أسأله مثلًا: لمن قرأتَ؟ فيجيب: طه حسين، العقاد، توفيق الحكيم.. فأتمادى وأسأل: ماذا قرأتَ لهم بالضبط؟، فما أكاد أنتهي من سؤالي حتى يرشقني بنظرة غاضبة ويصرخ: «اسكت».. ثم ما يلبث أن يذهب ليشكوني إلى رئيس التحرير لأنني أهنتُه!!.. كل سؤال مفحم مني أو من سالم الخنصوري أو من أي أحدٍ كان لبسيوني سلطان ولم يستطع الإجابة عنه فهذا يعني أننا تقصدنا إهانته!!.. مرة كنا نتجادل حول قصيدة النثر.. كان يقول: «ازاي نجمع في نفس الجملة «قصيدة» و«نثر» مع بعض ونقول «قصيدة النثر»!!، ده زي لما تقول «تفاح البصل»!!.. اش جاب التفاح للبصل!!»، قلتُ له: «أنت رجل خبير في اللغة يا أستاذ بسيوني، ولكن اسمح لي.. ما أظنك قريت الأدب العالمي بشكل جيد» فاستشاط غضبًا وصرخ في وجهي: «بتقول أيه؟!.. انته بتهينيّ؟!.. أنا اللي ما قريتش الأدب يا حِداثي يا متخلف؟!.. هي دي بقا أخلاق العمانيين؟!!»، وذهب ليشكوني إلى الأستاذ مرهون رئيس التحرير، ولم ينس طبعًا أن يثير مخاوفه من توجهاتي

«الحداثية» التي قد تفتح على الجريدة أبواب جهنم.. وطبعًا الأستاذ مرهون الموسْوِس بطبعه لا يحتاج إلا لمجرد إثارة خفيفة لتخرج مخاوفه من قمقمها.. أذكر أنه في اليوم نفسه الذي نشرتُ على صفحات الملحق مقالًا للدكتور محمد المحروقي أثناء اعتصامات 2011، طلبني بصفة عاجلة وصوته ينم عن كارثة حدثت أو على وشك الحدوث.. دخلتُ عليه فوجدتُ بسيوني قاعدًا أمامه واضعًا رجلًا على رجل وهو ينظر إليَّ بما يشبه ابتسامة صفراء كريهة.. عندما رأيتُ الملحق في يد رئيس التحرير حدستُ الأمر الذي استدعاني من أجله.. ما إن رآني حتى صرخ: «أيش هذا اللي سويته؟!.. حشرْتني.. حشرْتني».. معروف لدى جميع الزملاء أنه عندما ينطق الأستاذ مرهون بكلمة «حشرْتني» مرتين متتاليتين فهذا يعني أن ثمة مصيبة كبيرة وقعتْ أو في طريقها للوقوع، وأن عليهم أن يتخذوا أهبة الاستعداد للدفاع عن أنفسهم!

ـ خير أستاذ مرهون.. أيش صار؟

فتح الملحق على صفحته الثالثة وسألني باستنكار..

ـ أيش هذا؟

ـ هذا مقال عنوانه «الماء الآسن.. اعتصامات عُمان وما قادت إليه» للدكتور محمد المحروقي رئيس مركز الفراهيدي للغة العربية بجامعة نزوى..

قال وهو يتصنع الهدوء بينما يبدو على ملامحه أنه يجاهد لكظم غيظه:

ـ ممكن تقرا لي القصة اللي في مقدمة المقال.

أخذتُ الملحق من يده، وطفقتُ أقرأ:

«يذكر مؤرخ عمان الشيخ نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، في كتابه «تحفة الأعيان بتاريخ أهل عمان» قصة لها مغزى فيما نحن بصدد الحديث عنه، عندما يذكر سيرة الإمام غسان بن عبدالله اليحمدي، الذي ولي الإمامة بعمان أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين. يقول السالمي: «عظمت النعمة على أهل عمان، واطمأن الناس برًا وبحرًا وكثرت الخيرات، وعظمت البركات وبورك لهم في الأثمار، وربحت التجّار وانبسطت الفضائل من الله عز وجل، فلم تزل الأمطار فياضة على عمان، بحيث ترى الأودية جارية والصحارى خضرًا والجبال كذلك، وليس على الأمة مهم يزعجهم أو كارث يهمهم.... وكان الإمام غسان رحمه الله يخرج يزور قبر الوارث رحمه الله (إمام سابق مات شهيدًا في محاولة إنقاذ مسجونين من إغراق الوادي إياهم)، ويمشي على الغيل في الوادي يفعل ذلك كل جمعة، فيبقى هناك فيغتسل في ذلك الغيل، ثم يعود إلى الجامع لأداء فريضة الجمعة، ثم يرجع إلى الحصن. واتخذ ذلك عادة، وكان يتفقد الأحوال ويراعي بأحاسيسه نعم الله تعالى، فيرى الماء صافيًا كأنما سال ذلك اليوم، حتى رأى في بعض الأيام بالماء طحلبًا فاقشعر جلده وتأوه. وقال في نفسه: لعل حدثًا وقع فتأثر منه هذا الماء، فراجع نفسه فلم يجد عليها شيئًا، ونظر إلى الأمة وإذا بها في أوفر النعم وأكمل الأحوال. ولم يزل يقول في نفسه إن هذا أثر عن تغيير، مع أن الطحلب عادة في المياه إذا طال بها العهد. فأحضر أهل الأموال (أي أصحاب المزارع)،.. وقال لهم:

أريد أحرب الهند وبيت المال لا يكفي، وأريد أن أجعل على التجار قرضًا يكون أداؤه من بيت المال.. أشاوركم في ذلك، فماذا ترون؟ فقال أصحاب الأموال: أيها الإمام، التجار يسعون بالفائدة، وإن قلّت دراهمهم ضاعت المعاملة بيننا وبينهم، ونحن أرباب الأموال والقرضة علينا بما تريد. فقال: طيب. وأسرّها في نفسه.. (ثمّ دعا بالتجار وقال لهم مثل ذلك)، فقال التجار: أيها الإمام أصحاب الأموال أهل حرث، وأكثر الحروب غالبًا لا تكفي مغرم ما عليها، .وليس في أيديهم شيء مما يكفي لذلك، ولكن نحن عندنا ما يريد الإمام. فقال الإمام في نفسه: هؤلاء كالأولين لا غِيَر عندهم. ثم أحضر الوزراء وأرباب الدولة المسؤولين فيها، فقال لهم: أريد أن أجعل قرضًا على أرباب الأموال والتجار في بيت مال المسلمين لحرب الهند، فما ترون؟.. فقال له هذا الفريق الثالث: أيها الإمام هذا شيء وقع في نفوسنا من قبل. فقال في نفسه رحمه الله العلة ها هنا... فلما استقرّ عند الإمام محل الغِيَر قام فاستبدل بهم غيرهم، ثم خرج في الجمعة الآتية وهو يريد زيارة الوارث، وفي النفس التفات إلى ما وقع له، فنظر في الغيل فلم ير شيئًا مما رآه سابقًا، فشكر الله على ما وفق له من النظر في مصالح الأمة التي هو مسؤول عنها، فأكرم بغسان وأكرم بأعماله في عمان».

لم أكد أنتهي من قراءة القصة حتى قال رئيس التحرير بحدة:

ـ كيف نشرت هذي القصة من غير ما تشاورني؟

ـ عب أول عادي.. أنشر أشياء كثيرة من غير ما

أشاورك.. وأيش فيها القصة!.. تراها موثقة في كتاب نور الدين السالمي؟

قال وهو يشوح بيديه مغتاظًا:

- يا بو الشباب يا بو الشباب.. وأنا اللي أقول عنك عاقل ويُعتَمد عليك.. كيف في عز الاعتصامات والناس في صحار ومسقط وصلالة وصور تطالب بإقالة مسؤولين كبار في الدولة تجي أنت تنشر هذي القصة وأنت عارف إنها ذات مغزى؟

- أنا نشرتها ونشرت المقال لأنك طلبت مني أنشر مقالات عن الاعتصامات في الملحق، ولا بعد انته طلبت من سالم الخنصوري يغطي اعتصام مسقط.. ما صحيح؟

قال وهو يكوّر فمه كمن يستعد لنفخ بالونة:

- صحيح.. لكن مش لدرجة التحريض ضد الحكومة كما الصغيرين مال دوار صحار!.. أنا ما أريد جريدتنا تصنف على أنها جريدة معارضة.. هذي الجريدة فاتحة بيوت، ولازم احنا نحافظ عليها وما نتحرش بالحكومة!.. أيش يقولوا عنا عطيناهم شبر خذوا باع؟!!..

إلى هذا اليوم لا أعرف هل كان وجود بسيوني سلطان في مكتب رئيس التحرير أثناء هذا التوبيخ من باب المصادفة أم أنه هو الذي وشى بي لدى الأستاذ مرهون مستغلًا مخاوفه ووسوساته.. ولكن ما أعرفه حقًا أنني لم أرَ رئيس التحرير غاضبًا كمثل ذلك اليوم، حتى في ذلك اليوم

الذي خشيتُ منه أن يقيلني عندما جئتُ لأخبره أنني أضعتُ تسجيل حواري مع أدونيس الذي أجريتُه معه في لوبي فندق «جراند حياة» لم يغضب، ورد عليَّ بفتور: «شوف حوار ثاني.. مازال عندك يومين للملحق»، وكأنه لا يعرف من هو أدونيس الذي أضعتُ حواره!.. قبل ذلك بليلة كنتُ أندب حظي كالأرملة في حانة الغزال عندما دخل عليَّ إسماعيل اليوسفي وسألني بتهكم: «مالك تتوحوح كنك سنورة مضيعة ولادها!!».. أجبته بعربية فصيحة وأنا أكرع الكأس الرابعة: «اليوم خمر، وغدًا تَمْر.. ضيعت نزار قباني صغيرًا فضيعني أدونيس كبيرًا».. كنتُ سعيدًا أنني أخيرًا حاورتُ قامة ثقافية عربية يمكن أن أفتخر بها أمام المثقفين ليقال «المحرر الثقافي الذي حاور أدونيس»، وها أنا بتُّ بعد ثلاث عشرة سنة في هذه الوظيفة: «المحرر الثقافي الذي أضاع أدونيس»!

ـ عارف يا واد.. ده ربنا بيحبك لأنك ما نشرتش الحوار ده.. انته عارف أيه يعني أدونيس؟!.. ده صنم كانوا اليونانيين بيعبدوه في الجاهلية.. ده مسمي نفسه على اسم صنم.. ده هو إمام الحِداثيين.

ظللتُ فترة طويلة من الزمن أظن أن نطقه للحِداثيين بكسر الحاء لا بفتحها بسبب لهجته المصرية، إلى أن سألته يومًا: لماذا أنتم في مصر تكسرون حاء الحداثيين؟، فأجاب: «يا عبيط، دول حِداثيين لأنهم بيِحْدِثوا في ذوقنا.. انته ما سمعتش بالحدث الأصغر والحدث الأكبر!!».. يلوذ بسيوني بغريب اللغة دومًا لأنه لم يشعر مطلقًا رغم كل هذه

السنين في عُمان إلا أنه غريب الوجه واليد واللسان، لذا نجده دائم التذمر بأنه مظلوم لأنه «وافد»، وأنه لو كان عُمانيًا للقي تبجيلًا واحترامًا أكبر، رغم أن ثلاثة أرباع العمانيين الذين يتعامل معهم في الجريدة تقريبًا ـ بمن فيهم رئيس التحرير ـ يعاملونه معاملة الأستاذ الذي يفهم في كل شيء.. بسيوني سلطان لا يرى إلى الحياة إلا من منظور نظارته الضيقة.. كل ما يحدث له بشكل شخصي كفيل بتشكيل نظرته الشمولية إلى العالم.. مرة قال لي وهو يدخل إلى مكتبي: «همه العمانيين بقوا قلالة الأدب ليه؟»، سألتُه وأنا أجاهد لكظم غيظي من هذا الحكم التعميمي: «خير أيش صار؟»، فأجاب «النهارده ركبت تاكسي، وسألني السواق: بتشتغل فين؟، قلت له «في جريدة المساء» قام قال لي: يعني انته لسه ما وصلكش التعمين؟!.. أيه قلة الأدب دي!».. ومرة انفجرتُ في وجهه عندما أخذ ينتقد العمانيين الذين يعملون في الجريدة.. «دول عيال صيع.. لا بيشتغلوا ولا بيخلوا غيرهم يشتغل.. العمانيين خلاص ضاعوا، انتهوا»، انفجرتُ في وجهه صارخًا: «وحد مسك لك عصا وضربك على إيدك علشان تشتغل عند العمانيين؟!»..

لم أرَ في حياتي رجلًا يوسّع ضيقًا، ويضيّق واسعًا مثله.. خلقه الله في بلد كبير يقال له أم الدنيا فتركه وجاء إلى بلد صغير هو بحجم خنصر الدنيا الصغير، وفي هذا الخنصر سكن ظفرًا صغيرًا يقال له مسقط، وفي هذه المسقط اختار أن تكون حياته في بناية صغيرة اسمها جريدة المساء، وحتى في هذه البناية لم يطق العيش في مكتبه الواسع فتركه إلى مخيزن صغير أشبه بقن الدجاج.

كان بسيوني رجلًا مملًا جدًا، لدرجة أنه ليس من العسير على المرء أن يتنبأ كيف كان يمضي يومه! : يستيقظ في الصباح الباكر، يستحم، ويصلي، ويدعو على جمال عبدالناصر.. ثم يعد لنفسه طبق الحلبة التي ستصحبه رائحتها طوال اليوم، أما كوب الشاي فسيؤجله إلى أن يصل إلى الجريدة ليشربه بمعية السيدة زينب العجمي، ويرتدي بذلته الرمادية التي لا يغيرها يوميًا ويتوجه بمشيته السريعة التي كأنه يسابق بها المجهول إلى الشارع القريب من سكنه في الحمرية باحثًا عن أقرب تاكسي يوصله إلى مقر الجريدة.. لا ينسى طبعًا أن يحمل معه أنفه الطويل وسحنته العابسة وتقطيبته ونظرته في الفراغ التي تجعلكم للوهلة الأولى ـ وقبل أن تستمعوا إلى حديثه ـ تشعرون أنه فيلسوف مفكر كسارتر الذي اتضح أن بسيوني لا يعلم مطلقًا أن قريته المصرية كمشيش التي وُلِد وترعرع فيها تشرفتْ بزيارة هذا الفيلسوف المهم في منتصف الستينيات.. «مش ده اللي بيقول ربنا مش موجود.. ربنا لا يرحمه».. وحين أخبرته أنه كان برفقة سارتر في هذه الزيارة صديقته سيمون دو بوفوار تساءل: «صديقته ولا مراته؟»، أجبتُه ضاحكًا: «لا.. صديقته يا أستاذ بسيوني»، فعاد ليسأل: «كده من غير مَحْرم؟!.. ربنا لا يوفقهم».. وعلى ذكر الفلاسفة دخل عليّ في مكتبي مرةً سالم الخنصوري وقال لي: «بما أنك خريج فلسفة سأقرأ عليك هذا المقطع الذي صوّرْتُه من أحد الكتب، وإذا عرفتَ من هو الشخص المقصود فسأهدي إليك سيارتي المازدا».. قلتُ له

ضاحكًا: «تفضل».. فجلس على الكرسي المقابل لي وطفق يقرأ:

«كان في المدرسة يعتزل زملاءه ولا يصادق أحدًا، ولا يدعو أحدًا، ولا أحد يدعوه إلى منزله، فظل بينهم غريبًا موضوعًا للشفقة والرثاء، بسبب بزّته التي كانت هي هي لا تتغير: ثيابًا من القماش الخشن أسود اللون ذي التفصيل العتيق، وجاكتة قصيرة، وجوربين من الصوف، وحذاءين كبيرين»

قاطعتُه: «لا تكمل.. إنه بسيوني سلطان.. وهات مفتاح المازدا من فضلك».

ضحك كثيرًا وقال: «إجابتك ليست خاطئة، ولكن الذي سيجعل سيارتي تنجو أنه مكتوب أصلًا في الفيلسوف الدنماركي سورين كيركجارد»!.

بسيوني لا يؤمن أصلًا بالفلسفة ويعتبرني أضعتُ أربع سنوات من عُمري هباء في دراسة أمر سوف يبعدني عن الله!، ويعتبر أن الذي قرر غلق القسم في الجامعة هو مسؤول مؤمن لم يشأ أن يلاقي الله يوم القيامة وفي ذمته ذنب تدريس «الكفر» للطلبة، ولا يعرف بسيوني أن الجامعة أغلقت القسم لأنها لم تجد وظائف لخريجيه، كما فعلت أيضًا مع قسم الفنون المسرحية.. العلم لديهم مرتبط بالوظيفة!، فما دامت الخدمة المدنية لم تبتكر بعد وظيفة فيلسوف فليغلق القسم غير مأسوف عليه!.. ومع هذا فإنه

يتهيأ لي أن بسيوني يحاول كثيرًا دون أن يشعر التشبه بالفلاسفة رغم أنه لا يشبههم في شيء، فلا هو يترك لمحدثه أن يتحدث ليراه كما كان سقراط يفعل، ولا يؤمن بأي مدينة فاضلة كأفلاطون، ولا حتى يحمل مصباحًا في وضح النهار كديوجين.. والفيلسوف الوحيد الذي يشبه بسيوني ربما هو ديكارت الذي يربط وجود الإنسان بالشك، مع الفرق الكبير طبعًا بين شك ديكارت الموصل إلى الحقيقة وشك بسيوني المَرَضي الذي يجعله يتوهم أن جميع من في الأرض لا هَمّ لهم إلا التآمر عليه!.. والمرة الوحيدة التي رَضِيَ فيها بسيوني عن فيلسوف هي عندما كان يصحح مراجعة نقدية لكتاب «سيرة حياتي» لعبدالرحمن بدوي، عندما توقف فجأة عن التصحيح ورفع يديه نحو السماء في خشوع: «إلهي تغفر لعبدك الملحد ده وتسامحه وتبشبش الطوبة اللي تحت راسه».. كانت هذه أول مرة أراه يتضرع بالدعاء لصالح إنسان وليس ضده.. فسألته: «تقول إنه ملحد ثم تدعو له بالغفران!!.. غريبة»، فرد عليّ بهدوء: «كفاية أنه الوحيد اللي كان فاهم اللي ما يتسماش على حقيقته».. وبعد فراغه من التصحيح أخذتُ الأوراق لأكتشف السر: كاتب المراجعة النقدية ركز على موقف بدوي من عبدالناصر، وذكر أنه انتقد في كتابه قوانينَ الإصلاح الزراعي التي صادرت الملكيات الزراعية دون تعويضات للملاك. واضطلاع المشير عبدالحكيم عامر بمهمة تصفية الإقطاع بالجيش والسلاح فكانت النتيجة هزيمة 1967 سيئة الذكر.. وحتى تأميم قناة السويس الذي يفتخر

به كثير من محبي عبدالناصر انتقده بدوي لأنه كان يرى أن امتياز شركة قناة السويس كان سينتهي بعد إحدى عشرة سنة من هذا التأميم، ولن يضير عبدالناصر والمصريين شيء لو انتظروا هذه الأعوام القليلة في عمر الزمن؟!، وإن كانوا يريدون اختصار المدة الباقية فما كان عليهم إلا أن يدخلوا في مفاوضات مع الشركة.. لكن جمال عبد الناصر ـ يؤكد بدوي ـ لم يكن يهمه من الأمر أية منافع اقتصادية بل كان يريد عملًا سياسيًا مفاجئًا مثيرًا يكفل له الدويّ حتى لو جر على مصر الخراب!.. لا شك أن كلامًا كهذا جاء على هوى بسيوني، الذي لا أدري كيف يستطيع جمع كل هذا التناقض بين بغضه الشديد لعبدالناصر وحنينه الجارف إلى أيام هذا الزعيم الكبير.. إنه يزجي المدح لتلك الأيام دون أن يقصد أو يشعر، فتارة يقول لك «التعليم في مصر النهارده بقا تجارة، وما حدش يقدر عليه إلا الأغنيا المقتدرين اللي عندهم فلوس يودوا أولادهم مدارس أجنبية» ويسكت عن القول إن عبدالناصر اتخذ من عبارة «التعليم حق كالماء والهواء» شعارًا لسنوات حكمه، وتارة يقول لك: «حسني مبارك سقط ولا جنس مخلوق بكى عليه وعلى أيامه» ثم لا يذكر شيئًا عن ملايين المصريين الذين خرجوا إلى الشوارع، أو ظلوا في شرفات منازلهم وسطوحها وهم يبكون أثناء جنازة عبدالناصر في سابقة من الحزن الجماعي لم تحدث من قبل..

دعا بسيوني لفيلسوف إذن لأنه شاطره الكره لعبدالناصر، ولكن هذا لا يعني إطلاقًا أن أي منتقد للزعيم

الكبير هو محبوب بالضرورة لدى بسيوني.. فها هو مصطفى محمود مثلًا معروف بانتقاده لعبدالناصر لأنه يتهمه بالتسلط والاستعلاء والتأله، ومع هذا فإن بسيوني لا يطيق مصطفى محمود.. ما زلت أذكر ذلك اليوم من عام 2009 جيدًا، عندما مات هذا العالم الجليل واختلفنا أنا والشيخ داود الحراصي رئيس القسم الديني حول أحقية كل منا بتخصيص ملف عنه، أنا كنت أرى أن مصطفى محمود هو إحدى قامات الثقافة العربية والملحق الثقافي أولى به، والحراصي كان مصرًا على أنه أحد مجددي التفكير الديني، والملحق الديني هو المكان المناسب لملف شامل عنه.. وبينما كنا نتجادل أمام رئيس التحرير دخل علينا بسيوني فجأة، وما إن عرف بالموضوع الذي نتجادل فيه حتى علق دون أن يطلب منه أحد: «ما بنصحكمش».

سأله رئيس التحرير مستغربًا: ليش؟

ـ لأن الجماعة هنا ما بيحبهوش.

ـ من تقصد بالجماعة؟

ـ جماعتكم الأباضية.

ـ على أي أساس حكمت هالحكم؟

ـ مش همه اللي وقفوا برنامجه «العلم والإيمان» في تليفزيون عُمان؟!

هنا ابتسم داود الحراصي وقال على الفور:

ـ يا أستاذ محمد.. أنت تعرف أن البرنامج توقف لأن

الـ 400 حلقة خلصت وتم بثها كلها.. التليفزيون المصري وقف البرنامج وما عاد يرسل حلقات جديدة.

ـ ده السبب الظاهري بس، لكن السبب الحقيقي أنهم ما بيحبهوش. وإلا كان بإمكانهم يعيدوا حلقات قديمة.

هنا تدخل الأستاذ مرهون البطاشي رئيس التحرير وقال:

ـ في بداية التسعينيات، لما كنتُ في بداية عملي في قسم المحليات بالجريدة أُوكِلتْ إلي أول مهمة صحفية خارجية في الجريدة، وهي مرافقة سماحة المفتي في زيارته مصر.. السفارة العمانية في القاهرة احتفت بسماحته، وأقام سعادة السفير ـ وكان السيد عبدالله بن حمد ـ حفلة عشاء على شرف سماحته حضرها عدد من الشخصيات الفكرية والدينية المصرية الهامة، أذكر منهم الدكتور عبدالصبور شاهين، والدكتور مصطفى الشكعة صاحب كتاب «إسلام بلا مذاهب»، وأيضًا مصطفى محمود.. كان ذلك مساء أربعاء وأذكر أن عبدالصبور شاهين كان يلح على سماحته أن يؤم الناس في صلاة الجمعة بعد يومين في جامع عمرو بن العاص، ولكن سماحته اعتذر، يمكن لأنه ما حب أن تفسّر زيارته خطأ وأنه يستغل منابر المصريين للظهور الإعلامي.. الشاهد في هذا الكلام كله أن سماحته انهمك في حوار ودي طويل في ذيك الليلة مع مصطفى محمود اللي كان جايب معاه كرسي خاص بسبب ظهره، وكان هو والمفتي منعزلين في صوب بعيدًا عن البقية ويسولفوا طوال

السهرة، لدرجة أن الوقت تأخر وهمه ما خلصوا كلامهم.. وتجي الحين تقول لي الأباضية يكرهونه!!..

نظر بسيوني إلى الأستاذ مرهون صامتًا وهو يحك رأسه دون أن يعلق، وهذه هي طريقته عندما يشعر أنه أُفحِم.. المشكلة أنه لا يكتفي بتوهم أمور سيئة تحدث بل يعمل على نشر أوهامه هذه على أنها حقائق.. لا يريدنا أن نخصص ملفًا عن مصطفى محمود لأنه ببساطة لا يحبه ولا يحب أفكاره، التي هي تلتقي ـ كما أوضح لي بعد ذلك الشيخ داود ونحن خارجَيْن من مكتب رئيس التحرير ـ مع كثير من أفكار الأباضية، وأضاف: «لا أستبعد أنه يعتبره لهذا السبب من الضالين المضلّين».. قلتُ: «معقولة بسيوني بهذا التعصّب؟!».. قال «اصبر وبتشوف».

وما إن خرج بسيوني من مكتب رئيس التحرير واقترب منا حتى عاجلني الحراصي بصوتٍ تعمّد أن يكون عاليًا:

ـ الله يرحم مصطفى محمود.. كان عالم جليل ما يتكرر.

قلتُ ولمّا أنتبه بعد لمغزى رفع الحراصي صوتَه: «أي والله صحيح كلامك يا شيخ داود.. الله يرحمه».. ورأيت بسيوني يمص شفته بهدوء كعادته عندما يتهيأ للدخول في حوار جدلي: «.... مش هو ده اللي أنكر السنة وقال إن النبي مش حيشفع لينا»!!..

قال الحراصي: «لا يا شيخ محمد، أنت كذا كأنك تقول: «ولا تقربوا الصلاة» وتسكت.. الدكتور مصطفى لم

يقل إن النبي لن يشفع لنا، ولكن قال إنه لا يمكن أن يفعل المسلم ما يشاء من الذنوب والمعاصي ويصر عليها ويموت غير تائب عنها ثم يظن بعد ذلك أن شفاعة النبي وحدها هي التي ستنجيه!»

رد بسيوني بانفعال: «وراح فين الحديث الشريف اللي بيقول إنه سوف يخرج من النار كل من قال لا إله إلا الله ولو زنا ولو سرق..».

أجابه داود: «مصطفى محمود يرى أن هذا الحديث مشكوك فيه لأنه يتعارض مع حديث صحيح آخر يقول: «من يترك العمل ويتكل على الشفاعة يورد نفسه المهالك ويحرم من رحمة الله».

قال بسيوني: «واش معنى الحديث اللي أنا قلته مشكوك فيه، والحديث التاني مش مشكوك فيه؟»

أجابه الحراصي: «ببساطة لأن الحديث الأول يتعارض مع القرآن الذي ينفي الشفاعة في الكثير من آياته المحكمة نفيًا مطلقًا وفي آيات أخرى يذكرها مقيدة ومشروطة بالإذن الإلهي..

قال بسيوني بانفعال وصوت عال وكأن حجته ستكون أقوى بالصراخ: «يعني أيه؟!.. أنت عاوز تقول إن ربنا نفى الشفاعة عن سيدنا محمد؟!».

قال داود: «لا.. أنا ما قلت كذا.. أنا قلت إن الشفاعة لا تكون لأي مخلوق إلا بإذن الله.. قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾، وقـال أيـضًـا: «﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

وظلا هكذا حوالى ساعة يتجادلان وكل منهما يحاول إقناع الآخر بوجهة نظره بلا جدوى حتى مللتُ منهما فقفلتُ عائدًا إلى مكتبي.

- 6 -

رئيس التحرير: بالضبط كأنك تسحب السيفون

كان يغيظني أحيانًا ويحرق أعصابي، ولكن حين أقارن سيئاته بحسناته فإن هذه الأخيرة هي التي ترجح.. أظن أنه من المناسب أن أخبركم أنه بعد هذه الرقدة الطويلة في المستشفى فإني رأيت أن اللياقة تقتضي أن يجد ـ حين يفيق من غيبوبته ـ عقده وقد جُدِّد لسنة أخرى.. سوف يرفع هذا الأمر من معنوياته في وقت هو في أمسّ الحاجة إلى معنويات.. وحتى الشهرُ المتبقي من العقد القديم سأمنحه إياه إجازة مدفوعة الأجر ليقضي فترة نقاهة في بلاده.. بسيوني على كل حال مصحح متضلع من اللغة، ولم يقصر في تدريس ابني، حتى وإن كان ضربه مرة بدون وجه حق.. كما أنه رجل أمين.. أنا لن أنسى ذلك اليوم الذي دخل عليَّ في مكتبي وأعطاني 56 ريالًا وقال لي إن ثمة خطأ ارتكبه المسؤول المالي في الجريدة عندما سلمه مكافأة 30 يومًا في الشهر، في حين أنه لم يعمل سوى 26 يومًا فقط!.. من كان سينتبه لو أنه استحل تلك الزيادة الضئيلة؟!.. منذ ذلك اليوم وأنا أكن له احترامًا شديدًا.. أما مشاكله التي يتذرع بها كل من حسن العامري وسالم الخنصوري فأظن أن هذين هما آخر من يحق له التحدث عن المشاكل.. الأول كاد يطيح رأسي من جريدة

المساء غير مرة بسبب عدم انتباهه وقلة تركيزه، بعد أن صار مدمن كحول في السنوات الأخيرة.. ولولا صلته ببعض الأدباء المناكفين للحكومة المستعدين لإصدار البيانات تلو البيانات لكنتُ أقلتُه منذ مدة.. إنه رجل مثقف وصحفي جيد وموهوب وطَموح ولكن عيبه الوحيد هو ما أسماه زميله سالم: «الذبابة التي في إناء العسل».. فغالبًا ما يرتكب غلطة صغيرة في عمله تفسد اجتهاده وتلطخه كالبقعة السوداء في الدشداشة البيضاء، تمامًا كما في الأفلام البوليسية عندما يتمتع المجرم بالذكاء الشديد الذي يخوله ارتكاب أعتى الجرائم الغامضة ثم ينسى تفصيلة بسيطة لا تكاد تذكر ينفذ منها المحقق لاكتشاف لغز الجريمة برمته.. تارة ينشر نصًا لشاعر ماجن عن «أول اللذة» دون أن يكلف نفسه قراءته قبل النشر فيهتاج المطاوعة ضدي، ومرة يعرض كتاب فيلسوف ملحد.. من كان اسمه؟! سَبْنوزا؟!.. ومرة يضع على واجهة الملحق الثقافي لوحة لمايكل أنجلو دون أن ينتبه للأثداء الصغيرة التي تشرئب منها، ما جعل مكتب سماحة المفتي شخصيًا يتصل برئيس مجلس إدارة الجريدة منددًا بهذه الصفاقة، ليتصل بي هذا الأخير بدوره ويقرّعني تقريعًا شديدًا لم أُقَرَّعه في حياتي من قبل.. أما سالم الخنصوري فيكفيني منه صداع جمال عبدالناصر.. فلا يكاد يمضي يوم دون أن يكتب لي بسيوني رسالة شكوى ضده، مرة لأنه قال له إن عبدالناصر هو زعيم الأمة العربية، ومرة لأنه وضع له صورة عبدالناصر في درجه، ومرة لأنه وضع في هاتفه خطبة جمال عبدالناصر كنغمة وتعمد أن يطلب من

أحدهم أن يتصل به وهو بالقرب من بسيوني ليسمعه النغمة! . ومرة كان يتعمد أن يعلي صوته في صالة التحرير وهو يترنم بأغنية فريد الأطرش «جميل جمال، مالوش مثال»، بل إنه وضع له مرة صورة السيدة تحية كاظم زوجة جمال عبد الناصر عندما نشرنا خبرًا عن صدور كتابها «أيام معه» الذي سردتْ فيه ذكرياتها مع زوجها الراحل! . . والأغرب من هذا كله شكواه من أن سالم الخنصوري يكنّي نفسه أبا جمال! . . قلتُ له: «يا شيخ انته سميت ابنك جار النبي وما أحد اعترض!» أجاب: «ده بيكايدني يا أستاذ مرهون. . أصلًا ما عندوش ابن اسمه زفت!»، أذكر أنني علقتُ ضاحكًا: «ويعني أبو العلاء المعري كان عنده ولد اسمه العلاء؟!!». . الجميع الآن في الجريدة يلقبون بسيوني بـ«السيفون»، بسبب تشبيه بليغ أطلقه حسن العامري عندما قال لسالم الخنصوري مازحًا: «عندما تذكر اسم جمال عبدالناصر أمام بسيوني فكأنك بالضبط تسحب السيفون: جلجلة عظيمة واختلاط للقذارة بعضها ببعض». . ومع هذا فأنا أستبعد أن يكون سالم الخنصوري هو مَنْ فَعَلَها . . ألم تفكروا للحظة أن يكون بسيوني رأى جمال عبدالناصر فعلًا ، وأن هذا الأخير هو الذي وضع له باقة الورد التي عليها توقيعه؟! . . هناك احتمال كبير ألا يكون عبدالناصر قد مات بالفعل عام 1970 وإنما خطفه أحد السحرة فصار من «المغايبة». . أنتم تعلمون أن هذا يحدث كثيرًا في عُمان: يموت رجل أو امرأة أو طفل فيُدفن ويُقام عزاؤه وتمضي الأيام والسنوات، فإذا به يظهر لأهله في هذا الوادي، أو

تلك الهضبة، أو يُشاهَد في المزرعة، أو أمام باب البيت، أو داخل البيت نفسه، دون أن يستطيع أن ينبس بكلمة، ويظل بعد ذلك أهله يضربون أخماسًا بأسداس ممزقين بين الفرحة بظهوره مجددًا وبين الخوف منه.. «المغيّب» يعود إلى الظهور بعد أن يموت الساحر الذي خطفه.. ومن يدري فقد يكون الساحر الذي اختطف جمال عبدالناصر قد مات أخيرًا فأُتيح لعبدالناصر أن يعود إلى الحياة من جديد.. قبل عدة سنوات تدُوولتْ لدينا في عُمان صورة لعدد من «المغايبة» قيل إنهم ظهروا فجأة في أحد كهوف مدينة فنجا وجدهم عمّال أثناء شقّهم طريق مسقط نزوى السريع.. كانوا أشبه بالإنسان البدائي الأول: وجوه متغضنة، وشعور مشعثة، وسحنات مخيفة.. اتضح فيما بعد من جريدة الشبيبة أن الصورة ليست سوى لمعرض الشمع في باريس.. آه.. كم تمنيت أن تكون جريدة المساء صاحبة هذا السبق، لكن ويا للأسف لم يكن لدي صحفيون أكفاء في تلك الأيام.. قد تتساءلون: إذا كان عبد الناصر من «المغايبة» بالفعل فلماذا يظهر في عُمان وليس في مصر التي وُلِد ومات فيها؟!.. الجواب بسيط: ربما يكون الساحر الذي خطفه عمانيًا. أو لعل هذا الساحر مصري ولكن وافاه الأجل خلال مؤتمر للسحرة في عُمان!.. «كل شيء جايز»، هذه عبارة كثيرًا ما كان الخنصوري يرددها أمامي.. هذا الفتى الذي لا أعرف ما سر استمتاعه وتلذذه باستفزاز بسيوني سلطان دائمًا.. ولو اقتصرتْ مشاكله على هذه الاستفزازات لكان الأمر هينًا، ولكنه عنيد ولا يستجيب

لأية تعليمات أو توجيهات.. أذكر أنني عندما جمعتُ المحررين وأخبرتهم بوجود تعليمات عُليا بتجنب كلمة «إصلاح» واستبدالها بكلمة أخرى كان الوحيد الذي اعترض وقال لي بوقاحة: «لكي ننفذ هذا الأمر عليك أن تقدمه لنا مكتوبًا».. هذا الأحمق، هل يريدني أن أدين نفسي؟!، هو يعلم أن مثل هذه الممنوعات تكون بتعميم شفوي غير مكتوب.. لقد صار يتعمد الزج بهذه الكلمة في مقالاته وتحقيقاته وكأنه يتحداني، كما فعل قبل ذلك عندما كان يصر أن يكتب «العاطلين» وليس «الباحثين عن عمل»، و«المبدعين» وليس «المجيدين»، فضلًا عن إصراره على عدم تأنيث أسماء قبائل النساء.. والمرة الوحيدة التي أنّث فيها قبيلة امرأة كانت بقصد التهكم عندما حول اسم المحررة شمسة أولاد ثاني إلى «شمسة بنات ثانية»!!.. أحيانًا يخيل إلي أن مخيخه ليس في مكانه، ولذلك فهو لا يستوعب إلا ما يريد أن يستوعبه هو فقط.. ومع ذلك أنا مضطر إلى تحمله لأن التعليمات هي استيعاب كل الناشطين في اعتصام مجلس الشورى، «هؤلاء خطرون جدًا لأنهم مثقفون ولهم علاقات بسفارات أجنبية وقادرون على زعزعة أمن الوطن»، هكذا قال ضابط الأمن الكبير الذي اجتمع بنا نحن رؤساء تحرير الصحف في مكتبه.. اضطررتُ أن أستغل كراهية بسيوني للخنصوري فكلفتُه مراجعة كل مواده الصحفية من مقالات واستطلاعات وحوارات، وأعطيته تخويلًا بتغيير كل ما لا يراه متناسبًا مع سياسة الجريدة، وزودته قائمة بالكلمات الممنوعة والكلمات البديلة لها،

كأن يستبدل كلمة «الإصلاح» مثلًا بكلمة «التطوير»، و«تظاهرة» بـ«مسيرة»، و«البنية التحتية» بـ«البنية الأساسية»، و«سيدات الأعمال» بـ«صاحبات الأعمال»، و«الإبداع» بـ«الإجادة»، و«كاميرا» بـ«آلة تصوير»، و«راديو» بـ«مذياع».. الخ.. وقد أبلى بسيوني في ذلك بلاء حسنًا، وان كان ارتكب أحيانًا بعض الحماقات التي لا تليق بمصحح متمرس وحافظ للقرآن مثله.. هو مصحح ممتاز شرط ألا تكلمه أثناء التصحيح، فهو لا يستطيع أن يركز في النص وفي كلامك في الآن نفسه، «وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»، هكذا رد على لجنة التحقيق التي شكلتُها بعد الخطأ الفظيع الذي ارتكبه بسبب تبرمجه على تبديل بعض الكلمات بكلمات أخرى دون أن يركّز في النص المكتوب، فقد حوّل الآية الكريمة ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ إلى «إن أريد إلا التطوير»!!.. ولم يمض شهر على هذه الحادثة حتى ارتكب غلطة أخرى هي تحويل رواية عنوانها «سيدات القمر» إلى «صاحبات القمر» ما أدى إلى غضب مؤلفتها وكتابتها مقالًا مطولًا حول ما أسمته بـ«انتهاكات جريدة المساء لحرية التعبير والإبداع».. ورغم هذه الأخطاء الفظيعة إلا أنه يظل أفضل المصححين لدي، والوحيد الذي يمكن أن أطلب منه تصحيح مذكراتي الداخلية وأنا واثق أنه لن يسرّب ما فيها.. كما أنني أتفاءل بأحلامه.. مرة قال لي إنه حلم بي وأنا أصعد جبلًا وفي يدي كرسي صغير، ثبتُّه أعلى الجبل وجلستُ عليه واضعًا رجلًا على رجل.. وعندما سألتُه عن التفسير قال إن هذه بشرى منصب كبير ينتظرني.. وبالفعل لم

يمض أسبوع واحد حتى بُشِّرتُ بأنني مرشح بقوة لمنصب وزير الإعلام.. «التوجه الآن في هذه المرحلة أن توكل مهمة الإعلام إما إلى أكاديمي من الجامعة وإما إلى رئيس تحرير إحدى الصحف الخاصة، لإرسال رسالة إلى العالم عن الانفتاح الإعلامي الذي تشهده البلاد»، هكذا قال صاحب السمو لجميع الحاضرين إلى مائدته الرمضانية قبل شهرين ـ وكنتُ منهم ـ ، وطبعًا لا صحيفة خاصة أهم وأوسع انتشارًا من صحيفة المساء، ولا رئيس تحرير أجدر بالمنصب من رئيس تحريرها الذي هو العبد لله.. وكدتُ من سعادتي بحُلمه وتفسيره أن أكافئه لولا حادثة ضربه لابني سليمان أثناء دروسه الخصوصية.. هذه الدروس التي لم أندم على خطأ ارتكبتُه في حياتي كما ندمتُ عليها.. أم سليمان هي السبب.. هي التي أصرت أن أحضر مدرسًا خصوصيًا لسليمان في اللغة العربية لتقوية مستواه الذي تقول إنه ضعيف جدًا.. لا أنسى ذلك اليوم الذي عدتُ فيه إلى البيت لأجد أم سليمان غاضبة ووجه سليمان منتفخًا ومليئًا بالكدمات.. وعندما سألته «أيش اللي خلا وجهك شوارع يا ولد؟»، قال: «الأستاذ بسيوني».. قلتُ بغضب: «أكيد قليت أدبك عليه».. قال سليمان وهو على وشك البكاء: «والله العظيم ما سويت شي باه.. بس سألته سؤال عادي وما أعرف ليش عصب كل هذي التعصيبة».

ـ وأيش كان السؤال؟

ـ سؤال عادي باه.. قلت له: «ليش انتوا المصريين تحبون جمال عبدالناصر واجد يا أستاذ؟».

قلتُ وأنا لا أدري هل أصر على أسناني من الغيظ أم أضحك من شر البلية:

ـ وهل هذا سؤال عادي تسأله للأستاذ بسيوني؟

أم سليمان حلفتْ أنها ستدعو زملاءها في اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان إلى اجتماع عاجل لاتخاذ إجراء ضد بسيوني، وأنا لم أشأ في تلك اللحظه أن أنصحها بالتعقل لأني أعرفها: عندما تكون غاضبة فإنها لا تفكر إلا بعواطفها.. في الغد استدعيتُ بسيوني إلى مكتبي وقلتُ له بغضب:

ـ أنا طلبت منك تدرس ولدي اللغة العربية.. ما طلبت منك تقتله!.

قال وهو يسدد نظراته إليَّ بقوة وكأنه لم يفعل شيئًا:

ـ اسمح لي يا أستاذ مرهون.. انته إديتني الإذن إني أضربه لو قل أدبه.. حتى بالأمارة إنته قلت لي: «سلّم فيه العين بس»، وأنا ما جيتش ناحية العين خالص..

ـ وأيش عمل علشان يستاهل منك التأديب؟!

ـ ده باين عليه الواطي اللي اسمه سالم الخنصوري مسلطه عشان يكيدني بالزفت بتاعه الله لا يرحمه.

ماذا أقول الآن لهذا الشيخ الأخرق!!.. ابني عمره إحدى عشرة سنة فقط، ولم يدخل هذه الجريدة قط، ولم يرَ الخنصوري في حياته.. كل ما في الأمر أن معلم التاريخ في مدرسته وهو مصري اسمه الأستاذ فرغلي عبدالفتاح قال

وهو يشرح لهم درسًا عن تأميم قناة السويس إن عبدالناصر هو الذي أممها، وأن المصريين مازالوا يحبونه إلى اليوم.. وعندما طرح سليمان سؤاله المشؤوم ذاك لم يكن يقصد به أي شيء غير السؤال.. قلت له بغضب: «من اليوم ورايح ما أريدك تدرس ابني.. فاهم؟»

لم يرد، وإنما اكتفى فقط بليّ شفته تبرمًا وخرج.. وما هي إلا نصف ساعة حتى عاد إليَّ وفي يده رسالة استقالته من العمل بالجريدة مكتوبة بخط اليد، ومعللة بسوء المعاملة وقلة الاحترام!!، مذكِّرًا فيها بأنه خدم عُمان خلال أكثر من ثلاثين عامًا ولم يجد منها إلا نكران الجميل!!.. في الظروف العادية كنتُ سأوافق على استقالته وأنا مغمض العينين كاسرًا خلفه «قُلّة» كما يقول المصريون عادة عندما يتخلصون من شخص مزعج.. ولكن في ظروف كهذه كان عليّ أن أتريث، وأن أحث أم سليمان أيضًا أن تتريث.. ليس هذا فحسب، بل أن أعتذر له وأطيب خاطره وأطلب منه مواصلة تدريس ابني.. كلها أسبوعان وتبدأ الامتحانات وتنتهي هذه المشكلة، وإن كان لا بد من تخلُّصٍ من بسيوني فيجب ألا يسبب لي أي مضاعفات جانبية في هذه المرحلة الحرجة من عمري وأنا أنتظر المرسوم في أية لحظة.. أعرفه جيدًا هذا العجوز التافه.. إذا خاصم فجر، وسيسلقني بلسانه أمام الجميع في هذه الجريدة التي أنا متأكد أن نصف موظفيها مخبرون.. ولا أستبعد أن يذهب إلى أم سليمان ويخبرها أنني متزوج عليها سرًا وأنه كان أحد شهود هذا الزواج.. أم سليمان التي أنا متأكد أنها إذا

عرفت بهذا الأمر فستقلب حياتي إلى جحيم، وربما ستستغل عضويتها في لجنة حقوق الإنسان لإصدار بيان تنديد بي يفضحني ويجعل سيرتي على كل لسان، ويضيع جهد أربع سنوات هباءً.. لقد ظللتُ طوال هذه السنوات الأربع أسرق الليالي سرقة للمبيت مع الغالية.. وأعترف أن تفهّم أم سليمان طبيعة مهنتي رئيسًا لتحرير الصحيفة الأكثر شعبية في البلاد هو ما ساعدني على قضاء وقت لا بأس به مع زوجتي الثانية.. فقد تزوجتُ الغالية في نوفمبر 2008، وتحديدًا في ليلة الانتخابات الأمريكية التي تعرف أم سليمان مسبقًا أنني كنتُ عادة ما أسهرها في الجريدة ترقبًا لنتيجة الانتخابات.. في تلك الليلة دخلتُ بالغالية في اللحظة نفسها التي دخل فيها أوباما بأمريكا.. كانت أم سليمان مهووسة بمتابعة قناة الجزيرة وتحرص على متابعة كل الأحداث فيها، وهذا ما سهّل مهمتي كثيرًا بعد ذلك، فقد بتُّ أتحين الأحداث الكبرى لأخرج من البيت بحجة الإشراف على متابعة الخبر في الجريدة، في حين كنتُ في الحقيقة أهرول إلى الغالية.. عندما هرب بن علي إلى جدة هربتُ أنا إلى الغالية، وعندما تنحى حسني مبارك وغادر بيته الأول في القاهرة إلى بيته الثاني في شرم الشيخ تنحيتُ أنا من بيتي في القرم وغادرته إلى بيتي الآخر في الموالح، وقبل ذلك كنتُ قد قضيت شهر العسل الحقيقي مع الغالية خلال فترة حرب إسرائيل على غزة، فقد كنتُ طوال ثلاثة أسابيع أبيت خارج البيت.. الغالية هي أكبر نعمة في حياتي، لم أشعر بطعم الحب والراحة إلا وأنا في

حضنها.. هي نعمة كبيرة، واسمها أيضًا نعمة كبيرة.. فقد أخطأتُ عدة مرات فناديتُ زوينة بـ«الغالية» ولكنها لم تشك فيّ قط لأنها ظنتني أتغزل بها!.. منذ حوالى أسبوعين انتبهت ونحن مازلنا في بداية الليل إلى أن أم سليمان تتابع التليفزيون باهتمام، سألتها: «أيش تتابعين؟».. قالت: «سلامات يا بو سليمان.. معقولة العالم كله مشغول بهذي القفزة وأنت رئيس تحرير أهم جريدة في البلد ما عندك خبر»؟ سألتها: «أي قفزة»؟ قالت: «فيه واحد نمساوي اسمه فيليكس راح يقفز بعد ساعة أكبر قفزة في العالم»، وهنا شعرتُ أن الفرج جاء من السماء، فهتفتُ صارخًا وأنا أضرب رأسي بيدي: «اوهوه.. كيف أنا نسيت هذا الحدث المهم.. عن إذنك لازم أروح أبدل ملابسي»، وتركتُ الصالة متوجهًا إلى غرفة النوم، ارتديتُ دشداشتي البنية التي تحبها الغالية واعتمرتُ كمتي الحليبية.. وبينما أنا أرش نفسي بالعطر كنتُ أفكر أنني الليلة سأقفز أكبر قفزة في سرير الغالية.. فجأة دخلتْ عليَّ أم سليمان وقالت: «تعرف يا مرهون.. إن فيليكس هذا يمكن يموت الليلة؟» قلتُ وأنا أزدرد ريقي: «ليش عاد يا زوينة؟»، قالت: «هذي القفزة بتكون من خارج الغلاف الجوي من ارتفاع 39 كيلومتر.. يمكن يتجمد من البرد، ويمكن ما يحصّل أكسجين يتنفسه، وإذا دخل الغلاف الجوي للأرض بسرعة بيحترق هو وسترته الواقية.. وبعدين إذا ما قدر يتحكم بنفسه وصار يدور حول نفسه بسرعة بيفقد الوعي لأن الدم ما بيوصل للدماغ»، تركتُها دون أن أرد وعرقي يتصبب.. كنتُ أقود سيارتي وأنا

أفكر في كلامها: تُرى هل كشفت أمر زواجي بالغالية؟!، هل كانت ترسل إلي رسالة تهديد مبطن؟!.. أنا أعرف زوينة جيدًا، عندما تغضب مني فإنها لا تعاتبني بشكل مباشر، بل بسلسلة من التلميحات.. «يمكن ما يحصل أكسجين يتنفسه» هل تقصد أنها ستخنقني بعد أن اكتشفت الأمر.. نعم.. زوينة عرفت أنني تزوجتُ عليها وإلا فما معنى أن تقول: «بيحترق هو وسترته الواقية»!!.. كيف عرفتْ أنني أستخدم واقيًا مع الغالية؟!!.. ولماذا ارتفاع القفزة 39 كيلومترًا بعد أسبوع فقط من احتفالنا معًا بعيد ميلادها التاسع والثلاثين؟!!.. لا يمكن أن تكون كل هذه المعطيات صدفة!!.. حشرتِني يا زوينة.. حشرتِني.. التهديد واضح وليس مبطنًا: «بيفقد الوعي لأن الدم ما بيوصل للدماغ»، هذا طبعًا «إذا ما قدر يتحكم بنفسه».. ولكنني سأتحكم في نفسي يا زوينة، ولن أذهب إلى الغالية، وها أنا أحرف السيارة عائدًا إليك.. سأتابع معك أكبر قفزة في العالم وأنا أدعو للنمساوي أن ينجح.. لا بد أن ينجح وإلا فإن فشله سيكون نذير شؤم لي!.. وعدتُ إلى أم سليمان التي قالت: «أشوفك رديت بسرعة» قلتُ لها: «اتصلتُ بمدير التحرير يتابع القفزة، وأنا قررت أتابعها معاك».. في تلك الليلة كنتُ أسعد رجل في العالم بنجاح فيليكس في قفزته.. وفي سريرنا آخر الليل واصلت زوينة مسلسل تلميحاتها بالقول: «تعرف أيش قال فيليكس بعد نجاحه في القفزة؟».. قلتُ بضجر: «لا ما أعرف.. خبريني انتي أيش قال؟».. قالت: «عندما نقف هناك على قمة العالم، نشعر بتواضع كبير،

وكل ما نتمناه هو العودة أحياء، علينا أن نصعد عاليًا لندرك كم أننا صغار».. كدتُ أصرخ في وجهها: «إذا كان عندك أي شيء قوليه بوضوح، وخلي عنك هذي التلميحات التافهة» ولكن شيئًا ما أشبه بالجبن منعني، وفي الغد كان أول أمر أفعله بعد وصولي إلى المكتب أن بحثتُ في جوجل عما قاله فيليكس بعد القفزة، وهدأ روعي واطمأنت نفسي عندما تأكدتُ أنه نطق بما قالته زوينة بالحرف.. المجد لك يا فيليكس.. المجد لكل الصاعدين عاليًا غير عابئين بالمخاطر.. كانت تلك قفزة مصيرية ترتب عليها بقائي في هذه الحياة، أنا الذي قضيتُ أربع سنوات من عمري أدور حول نفسي بسرعة مرعوبًا من تأخر وصول الدم إلى الدماغ.. تطلب الأمر مني أحيانًا أن أقضي نصف الليل عند الغالية والنصف الآخر عند أم سليمان، واجهتُ صعوبة في تحمّل تبعات هذا التقسيم في الأيام الأولى حتى لقد خشيت أن تشك أم سليمان في أمري، وهي التي اعتادتْ فحولتي التي لا تختلف عليها اثنتان، ولكن حين أخبرتُ الشيخ داود الحراصي - رئيس القسم الديني الذي عقد قراني على الغالية - أرشدني إلى أن المصحح التونسي عبدالمجيد لديه الحل.. ومنذ ذلك اليوم وأنا أقوى من الإعصار، وأمضى من الرصاصة، لدرجة أنني نقلتُ تجربتي هذه إلى بعض الأصدقاء المقربين، وهذا ما دفعني للاعتماد كلية على مقويات التونسي عبدالمجيد. الغالية بدأتْ تتململ من هذا الوضع، وضع سرية الزواج أعني وليس المقويات.. تقول إنها زوجة على سنة الله ورسوله وليست

تُهمة أو فضيحة لأخفي علاقتي بها، وعندما زادت وتيرة تململها هذا وعدتُها أن أعترف بزواجها في اليوم التالي لصدور المرسوم.. كان هذا منذ سنة تقريبًا ولكن المرسوم لم يصدر بعد.. لا أدري هل هو الروتين الاعتيادي أم أنني ما زلتُ خاضعًا لرقابتهم وتنصتاتهم على هاتفي للتأكد من أنني اختيارهم الأمثل.. قاتل الله الدولة الأمنية.. في مكان آخر غير هذا المكان كانت خبرتي كصحفي متمرس وكأول خريج لقسم الصحافة والإعلام من أعرق جامعة في البلاد ستكفيني لأكون المرشح الأبرز لمنصب وزير الإعلام دون الحاجة إلى تزكية من «مكتب» ولا توصية من «جهاز»، ودون الحاجة إلى التلفت خلفي خوفًا من المخبرين.. كم أحسد هؤلاء الذين تحرروا من الطموح.. قبل يومين جاءني في مكتبي صديقي وزميل دفعتي الجامعية الدكتور حمدان الهنداسي في زيارة مفاجئة.. تذاكرنا معًا أحداث الحراك الذي جرى السنة الماضية والذي أصر الهنداسي على تسميته الربيع العماني، فيما حاولتُ جاهدًا بلا جدوى إقناعه أن هذا ليس أكثر من حراك مطلبي توقف بعد أن لبى جلالة السلطان حفظه الله مطالب الشباب المعتصمين، وأنه لا يليق به كأكاديمي وباحث ومثقف أن يزج باسم عُمان العزيز علينا جميعًا في ذلك الشيء المشتبه فيه الذي يقال له «ربيع عربي».. وكانتْ مناسبة لأعاتبه عتاب الصديق المحبّ على تقديمه محاضرات آنذاك للمعتصمين في ساحة مجلس الشورى، فسألتُه بود: «ألا تخشى على مستقبلك السياسي يا صديقي؟»، سألني بابتسامة: «وما الذي عليّ أن

أخشاه؟»، قلتُ: «أنت أكاديمي ومحاضر مرموق في الجامعة، وصدرتْ لك ستة كتب بحثية لافتة، وبتَّ اليوم من المثقفين الذين يشار إليهم بالبنان في السلطنة، وسبق أن أخبرتك بما أخبرنا به صاحب السمو عن التوجه الجديد للحكومة لتوزير الأكاديميين».. ضحك حمدان من قلبه ثم قال: «هل تعرف أن كثيرًا من دكاترة الجامعة يتأخرون على محاضرات الساعة الحادية عشرة صباحًا، فلا يدخلون قاعة التدريس قبل الحادية عشرة وخمس دقائق، بل أحيانًا الحادية عشرة وعشر دقائق».. قلتُ له: «ما دخل هذا بكلامنا؟!.»، قال وهو يواصل الضحك: «إنهم يواظبون يوميًا على سماع نشرة الحادية عشرة في مكاتبهم ترقبًا للمرسوم»!.

ـ 7 ـ

رئيسة القسم الاقتصادي: تاريخ أيه وجزمة أيه يا زينب!

أعترف أنني غير قادرة أن أنسى إساءته، ويبدو أنه صحيح ما قاله لي زميله التونسي مرة من أن الموقف الأخير في علاقاتنا الإنسانية هو الذي يرسخ عادة ويمسح ما سبقه.. ومع هذا فيشهد الله أنني لم أتمنَّ له هذه الرقدة.. وعندما زرتُه في المستشفى خرجتُ في كلا المرتين وأنا أبكي لدرجة أن ابني علي طلب أن يقود السيارة بدلًا مني.. تمنيتُ أن تكون رقدتُه هذه قبل ذلك الموقف السخيف الذي حدث بيننا قبل عدة أشهر.. أذكر ذلك اليوم جيدًا، عندما دخل عليَّ في مكتبي في أول يوم عمل لي بعد إجازة عاشوراء.. أخذ يفرقع أصابعه في ملل وكأنه يريد قول شيء ولا يستطيع.. شجعتُه وقلتُ:

ـ خير يا شيخ محمد.. فيه شي؟!

ـ لا ما فيش حاجة.. بس أنا يعني كنت عايز أسألك: انتي مش قلتي لي مرة إنه نفسك تزوري مقام السيدة زينب؟

ـ أيوه..

ـ أنا حوديك هناك..

ـ والله؟!.. خبر جميل.. إذن إن شاء الله بنروح أول ما تخلص امتحانات علي في الجامعة:

ـ هو علي حيروح معانا؟

ـ طبعًا.. هذا ابني حبيبي.

تغير وجهه فجأة وبانت عليه علامات الامتعاض:

ـ لا.. يعني.. أنا قصدي نروح أنا وانتي بس..

ـ وعلي؟

ـ علي مش عيل.. وحيقدر يعيش كام يوم من غيرك..

استغربت اقتراحه فصَمَتُّ، ففاجأني بعدها بتوضيح لم أطلبه:

ـ يعني أنا قصدي إني أنا وانتي.. أنا وانتي.

قلت بتململ:

ـ أنا وانته أيش يا شيخ؟

ـ ـ نِتْ.. نِتْ.. نتجوز.

هنا لم أستطع منع نفسي من الضحك، وقلتُ وأنا أقهقه:

ـ يا شيخ.. أنا ابني في الجامعة، وانته عمرك فوق السبعين!

رد بجدية وصرامة:

ـ وفيها أيه؟..

ـ والست الحاجة؟!

ـ الست الحاجة ما خلاص.. وكمان أنا راجل صحتي زي الحديد، وقادر أتجوز اتنين وتلات وأربع.. وبعدين دي كلها عشرة أيام وكل حي يروح لسبيله.

سألتُه مستغربة: يعني أيش؟

ـ يعني نتجوز متعة.

هنا بدأتْ دموعي بالجريان دون أن أشعر.. فقد تذكرتُ زوجي رحمه الله عندما كان يقول: «أنا أعرف أن مذهبنا يبيح زواج المتعة.. لكن عُمري ما فكرت أتزوج بهذي الطريقة يا زينب.. الزواج رباط مقدس بين شخصين، شراكة كاملة في الحياة في كل شيء.. مش مجرد «متعة» صغيرة يروح بعدها كل واحد ف طريق».. كانت تلك هي البداية في تكسير اقتناعي بإحدى مسلمات مذهبنا.. وأنا اليوم من أشد المعارِضات لزواج المتعة لأنني أعتبر ذلك امتهانًا للمرأة واختزالًا لها في جعلها مجرد متعة للرجل.. هذا الموقف كلفني كثيرًا على الصعيد الاجتماعي، إذْ إن كثيرًا من مشايخ الشيعة غاضبون مني ويعتبرونني ضالة!.. ما يحزنني أكثر في عرض هذا العجوز المصري الذي كنتُ أعتبره قبل هذا العرض في حكم المرحوم أبي أنني أعرف أن مذهبه السني يحرم زواج المتعة، وأن هذا يعني أن الشاي اليومي الذي كان يعده لي، وتقربه مني في السنوات الماضية، ومشاركته لي في الجمعية التي جل أعضائها نساء، لم يكن كل ذلك سوى مقدمة للانقضاض على جسدي!.

ـ فيه أيه يا زينب.. انتي بتعيطي؟

لم يكن يبدو عليه أنه مدرك ماذا فعل بي.. لم أكن أقوى حتى على النظر إلى وجهه..

ـ فيه أيه يا زينب؟

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ في وجهه بغضب:

ـ من فضلك.. اخرج بره من مكتبي يا شايب يا عايب..

والتم موظفو الجريدة حولنا وهم يسألونه: «أيش اللي صار؟».. وهو ينظر إليَّ مذهولًا وكأنه لا يدري ماذا فعل، وسمعتُه وهو يخرج يسأل زميلنا بدر الغداني: «هي مالها زعلتْ كده؟!.. هي مش شيعية ولا أيه؟!».. أسندتُ ظهري إلى كرسي المكتب وأخذتُ نفسًا عميقًا.. كانت عيناي معلقتين في الفراغ.. وعادت بي الذاكرة ثلاث سنوات إلى الوراء: عندما دخلتُ صالة التحرير فوجدتُه يشتم ويتوعّد زميلنا سالم الخنصوري الذي وضع له على طاولة التصحيح صفحة «حدث في مثل هذا اليوم».. كان ذلك اليوم هو الخامس عشر من يناير، وكان أحد الأحداث التي حدثت في مثل ذلك اليوم من عام 1918 هو ميلاد جمال عبدالناصر!.. أشفقتُ عليه عندما رأيته يرتجف من الغضب وصرختُ في وجه سالم «والله عيب عليك.. هذا كبر والدك».. قدتُه من يده وتوجهتُ به إلى مكتبي وطلبتُ له عصير ليمون.. ومنذ ذلك اليوم صار مكتبي هو أول مكتب يدخله عندما يصل إلى الجريدة، وكان يحرص أن يعدّ كوبين من الشاي يوميًا لنشربهما معًا.. وعندما عرفتُ أنه

كان مدرسًا في المعهد الإسلامي في منتصف ثمانينيات القرن الماضي سألته إن كان يعرف طالبًا كان يدرس في المعهد آنذاك اسمه خالد الخروصي.. فقال:

ـ سيبك منه.. ده واحد أباضي متشدد.

قلتُ له: «الله يرحمه.. هذا زوجي.. وما كان متشدد ولا شي، بدليل أنه تزوجني وأنا شيعية!، ولا عمره طلب مني أغيّر مذهبي».

فتدارك بعد تلعثم قصير قائلًا: «أصله كان عندنا في المعهد اتنين طلبة اسمهم خالد الخروصي، واحد متشدد قوي، والتاني متسامح.. انتي ربنا بيحبك لأنك تجوزتي المتسامح.. الله يرحمه»..

لو يعرف بسيوني من هو خالد الخروصي ما كان جرؤ على أن يبهته بهذه الطريقة.. كان خالد هبة الله لي وطوق النجاة في وقت كنتُ على وشك الغرق في لجة الحزن.. أذكر تلك الليلة من ديسمبر عام 1987 عندما جفاني النوم فقمتُ وتوضأت وشرعتُ أصلي وأبكي وأدعو الله أن يخفف عن عائلتي مصابها وأن يبعث لنا من يحمينا في ظل غياب أبي الذي سيبيت ليلته الأولى في السجن.. وفي الصباح التالي شعرتُ بقوة عجيبة تسري في أوصالي وتقول لي: يا زينب، أنتِ قوية وستتجاوزين هذه المحنة، قومي واذهبي إلى عملك وكأن شيئًا لم يحدث.. قَبّلتُ أمي وبثثتُ فيها روح التحدي وتوجهتُ إلى مكتبة الرسول الأعظم بمطرح حيث كنتُ أعمل.. وفي منتصف النهار تقريبًا دخل

هذا الرجل المكتبة: ثلاثيني وسيم، واثق الخطى، ذو لحية لا هي بالطويلة ولا هي بالخفيفة، يرتدي دشداشة قصيرة نسبيًا، وعمامة بيضاء.. طلب مني كتاب «السبيل إلى إنهاض المسلمين» للسيد الشيرازي.. شككتُ فيه على الفور.. نحن شيعة مطرح مجتمع مغلق ونعرف بعضنا بعضًا، وأعرف جميع من يرتادون هذه المكتبة منذ عملي بها قبل ثلاث سنوات..، لم يكن هذا منا.. لا ملامحه، ولا سحنته، ولا حتى لهجته.. إنه على الأرجح مخبر جاء ليكمل ما بدأه زملاؤه، وإلا لماذا يطلب كتاب الشيرازي بالذات.. بعد أن سجنوا الأب ظُلمًا جاؤوا اليوم ليكملوا الدور مع ابنته.. قلتُ أتغدى به قبل أن يتعشى بي: «ولماذا تطلب هذا الكتاب بالذات؟ هل أنت من ضمن تنظيم الشيعة الشيرازية؟».. ضحك وقال: «كلا.. أنا مجرد طالب علم يعد بحثًا عن النهضة الإسلامية من منظور جميع المذاهب، وأعرف أن السيد الشيرازي مرجع مهم لدى الشيعة».. سألتُه: «هل أنت شيعي؟» رد: «كلا.. أنا أباضي، ألا ترين العمامة؟».. ثم أردف: «ولكني لستُ متعصبًا لأباضيتي، وأرى أن الإسلام دين واحد والمذاهب ليست سوى طرائق لفهمه. أي إنها وسائل لا غايات».. اندهشتُ مما قال، ليس لأنه جديد عليَّ، بل لأنه كان يعبر بالضبط عما يعتمل داخلي فيما يتعلق بالمذاهب.. وبعد أن اطمأننتُ إليه أعطيته الكتاب، وقبل أن يخرج سألني مستوضحًا عما ذكرتُه قبل قليل عن تنظيم الشيعة الشيرازية.. لم يكن غريبًا أنه لا يعلم شيئًا عن الأمر الذي تم في تكتم شديد، والإذاعة

والتليفزيون لم يقدما عنه أي معلومة.. أخبرتُه أنه بالأمس تم الحكم على والدي مع سبعة عشر آخرين بتهمة «التخابر مع جهات خارجية لقلب نظام الحكم» لمدد تراوح بين سنتين وثماني سنوات.. كان يستمع إلي بهدوء وأنا أعض على حروفي مؤكدةً أن هذه تهمة ملفقة وأن كل جريمة أبي هي كونه صديقًا حميمًا للشيخ حسن الصفار الذي كان يشجعنا نحن الشيعة على المشاركة في النشاط السياسي، وبأي طريقة ممكنة، لإيصال صوتنا إلى المسؤولين في الحكومة.. فهل هذه جريمة!!.. رأيتُ التأثر في عينيه وهو يردد بصوت خفيض: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، سألني عن وقع الأمر على عائلتي فأخبرتُه أن عائلتي مكونة مني ومن أمي فقط ولا أخوة لي.. قال: «لا تترددي في الاتصال بي إذا ما شعرتِ بأنك بحاجة إلى أي شيء»، وأعطاني رقم هاتف منزله.. وحدث أن احتجتُ إليه فعلًا بعد أسبوعين، فموعد زيارة أبي في السجن قد أزف، وأنا لم أُجِد القيادة بعد، وأمي متحفظة أن تطلب من أحد الجيران لأنها لا تطيق نظرات أعينهم التي تراوح بين الشفقة والتشفي، فكان أن ذكرتُ لها خالدًا.. فقالت: «لعله كان كلام مجاملة فقط».. قلتُ: «دعينا نجرب».. وبعد نصف ساعة فقط من اتصالي بخالد كان بسيارته اللاند كروز أمام بيتنا، الذي كان بجوار مكتبة الرسول الأعظم.. حملنا إلى السجن، وهناك قابلنا أبي الذي حاول أن يبدو متماسكًا أمامي.. وطوال السنتين اللتين قضاهما أبي في السجن لم ينقطع خالد الخروصي عن زيارتنا، ولم نذهب لزيارة أبي

إلا في سيارته.. كفتاة رومانسية كنتُ قد قرأتُ كثيرًا عن الحب قبل أن ألتقي خالدًا، وكان تصوري له هو ذلك السيل الجارف الذي يسيطر على المشاعر والوجدان فجأة بمجرد أن يرى العاشق معشوقه للمرة الأولى.. لكن علاقتي بخالد كسرت قناعتي بالحب من النظرة الأولى، بل على العكس تمامًا كانت هذه النظرة الأولى باعثًا على الشك وعدم الارتياح.. حبي لخالد نما كما تنمو نخلة صغيرة كان أصلها نواة.. كانت النواة عبارته: «لا ترددي في الاتصال بي إذا ما شعرتِ بأنك بحاجة إلى أي شيء»، لم يقل: «اتصلي بي» بل: «لا ترددي في الاتصال»، ولم يقل: «إذا احتجتِ إلى شيء» بل: «إذا ما شعرتِ بأنك بحاجة إلى أي شيء».. كان خالد لبقًا يعرف كيف يختار كلماته بعناية، ربما لأنه كان قارئًا نهمًا، وربما لأنه يحب الشعر.. كبرتْ النواة بعد أن سقاها خالد نفسه بمواقفه الرجولية معي ومع أمي في وقت كنا في أَمَسِّ الحاجة إلى وقفة رجل معنا، خصوصًا بعد أن تنكر لنا «مجلس شيوخنا» الذين عينته الحكومة مطلع الثمانينيات، ليكون أول مسمار في نعش تكاتفنا وتعاضدنا نحن الذين عشنا طويلًا في عُمان بمنتهى الود والانسجام بدون الحاجة إلى شيخ قبيلة أو رشيد.. كان خالد يتحدث عن نقاط الالتقاء بين المذاهب المختلفة وينتقد الذين لا يركزون إلا على نقاط الخلاف.. معه عدتُ إلى الشعور أن المسلمين سواء في الحقوق والواجبات، ولا يجوز لأي مسلم أن يدعي أن عبادته هو فقط القريبة من الله، وأن المسلمين الآخرين أقل منه قربًا لله.. النواة

أصبحت شجرة صغيرة تكبر يومًا بعد يوم حتى شعرتُ أن حياتي لا يمكن أن تستمر بدونه.. كنتُ أشعر باهتمامه الكبير بي بدون ادعاء أو شبهة رياء، ورغم ذلك لم يكن حتى يلمح مجرد التلميح إلى أنه يحبني أو يود الزواج بي.. إلى أن فاجأني بعد أسبوع واحد فقط من خروج أبي من السجن عام 1989 أنه يطلب الزواج بي.. سألتُه بعد ذلك: «لماذا خطبتَني هكذا بدون أن يبدو منك أي تلميح أنك تحبني!» قال: «كنتِ في ظرف سيىء في ظل غياب أبيك، وخشيتُ أن تظني أنني أستغل هذا الظرف!».. يا الله.. أين نحن اليوم من أخلاق الفرسان هذه.. هذه الأخلاق هي نفسها التي جعلتْه يورط نفسه مع أصدقائه مشايخ الأباضية لينصحهم بالابتعاد عما يخططون له من إحياء دولة الإمامة، لتلبسه بعد ذلك التهمة التي لبستهم حتى وهو ميت.. لم أصدق نفسي وأنا أرى اسمه يتكرر في تغطية صحيفتنا للمحاكمات عام 2005 رغم أنه مات قبل ذلك بثلاث سنوات.. أتعرفون بِمَ أوصاني بعد أن تأكد أن السرطان لن يمهله أكثر من عدة أشهر؟!.. «علي صار أباضي بحكم الوراثة ومش بالاقتناع.. لكن لو في يوم من الأيام قرر يغير مذهبه إلى شيعي أو سني أو أي مذهب ثاني اياني وإياك توقفي ف طريقه».. سألتُه: وأيش جاب ها الفكرة ف راسك؟» قال: «الأسبوع الماضي الشيخ حمود الربخي ما عجبه إنه بنت أخوه تحولت إلى سنية على مذهب زوجها.. والسنة الماضية صديقي عبدالعزيز المانعي كان زعلان من تحول ابن عمه من سني إلى أباضي.. أنا أحترم التمسك

بالدين، ولكن التمسك الأعمى بالمذهب ومحاولة فرضه على الآخرين بالغصب ما أحترمه.. وأكثر شيء يغيظني لما أسمع تواصيف معينة لبعض المذاهب تحمل في داخلها نوع من الإقصاء للمسلم الآخر.. لما نقول: «احنا أهل السنة والجماعة» هل يعني أن المسلمين الآخرين يتبعون نبي آخر غير سيدنا محمد!!.. ولما نقول: «أهل الحق والاستقامة» هل يعني هذا أن المسلمين الآخرين هم أهل الباطل والاعوجاج!!».

هل تعتقدون أن رجلًا بهذا التسامح يمكن أن يكون محرضًا على تنظيم مذهبي!!.. أشبه ما جرى للمرحوم خالد برجل شجاع رأى طفلًا صغيرًا يحوم حول بركة سباحة عميقة فهبَّ إليه لنجدته، وعند اقترابه منه سقط الطفل في البركة فغطس إليه خالد بسرعة وأخرجه بصعوبة من الماء.. الأم لم تَرَ إلا طفلها وهو في أحضان منقذه وهو في حالة يُرثى لها.. وبدلًا من أن تشكر هذا الرجل النبيل الذي أنقذ ولدها من الغرق اتهمتْه أنه هو الذي رماه في البركة!!.. أليس هذا ما يسمى بـ«جزاء سينمار»!!.. أخبرني الشيخ داود الحراصي بعد ذلك أن كثيرين من هؤلاء لم يكونوا يخططون لإحياء إمامة ولا يحزنون وكل همهم كان هو الحفاظ على مذهبهم.. وأنا أصدق هؤلاء، ولكني أيضًا أصدق أن الحكومة لم تقبض عليهم من فراغ.. فصحيح أن تنظيمهم هذا عندما وُلِد في بداية الثمانينات كان الهدف منه تعزيز ما يسمونه بالمبادئ الأصيلة للمذهب الأباضي في نفوس الناشئة، ولكن الصحيح أيضًا أن وهم

الخط السياسي وغرس قيم الإمامة بدأت تداعب أذهان البعض.. أو أقله هذا ما فهمته من تغطية صحيفة المساء للمحاكمات، التي اعترف فيها البعض بذلك، ومما كان يحكيه لي المرحوم زوجي أن كثيرين من مشايخ الأباضية كانوا معجبين بكتاب: «عمان: الديمقراطية الاسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث» للدكتور حسين غباش الذي أبدى فيه بتحليل علمي رزين إعجابه بنظام الإمامة القديم في عُمان واعتبره أقرب النظم إلى الديمقراطية، بل ختم كتابه بخلاصة مفادها أنه يمكن ـ بشيء من التعديلات التي تناسب روح العصر ـ تطبيق هذا النظام الآن بنجاح.. وطبيعي جدًا أن بعض المنضوين إلى لواء المجموعات الصغيرة المتفرقة التي ضمها التنظيم ـ مثل الشيخ داود ـ لا يعلمون الهدف الأكبر للتنظيم.. وكان طبيعيًا أيضًا أن تتخذ هذه المجموعات من الندوات والمحاضرات والمراكز الصيفية والمعسكرات الشبابية وسائل عملية للاستقطاب. وأن يكون هناك مجلس ولايات يتابع مناشط الولايات العمانية، وأن يلتزم بعض أعضاء التنظيم بدفع اشتراكات من رواتبهم بلغت نسب الاستقطاع منها 5%؛ استثمرها المجلس الأعلى للتنظيم المكون من ثمانية أشخاص في قطاعات حيوية ومدرة للأرباح كالشركات العاملة في العقار وإقامة مدارس خاصة ومكتبات عامة وتجارية.. كان للمرحوم خالد ـ مع آخرين من مشايخ الأباضية ـ دور في إقناع بعض المنضوين إلى التنظيم في الخروج منه عامي 2001 و 2002، خصوصًا بعد أن تيقن الجميع أن هذا

ليس وقت تنظيمات دينية، خصوصًا بعد أحداث سبتمبر..
لم يكن يدور بخلدي وأنا أشيع زوجي الحبيب إلى مثواه الأخير عام 2002، أن اسمه سيتردد بقوة بعد ثلاث سنوات كأحد زعماء تنظيم يخطط «لقلب نظام الحكم وإحياء دولة الإمامة»!!.. لا أدري لماذا أنا موعودة برجال كهؤلاء في حياتي: أبي متهم بالتخطيط لقلب نظام الحكم بالتنظيم الشيعي، وزوجي متهم ـ وهو في قبره ـ بالتخطيط لقلب نظام الحكم بالتنظيم الأباضي.. وابني علي متهم بارتباطه بمنظمات خارجية تسعى لزعزعة الأمن والاستقرار في البلاد!.. بهذا المنطق تستطيعون اعتباري أخطر امرأة في هذه البلاد!!، وربما أخطر من زبيدة بنت جعفر التي كانت زوجة خليفة وأم خليفة وحفيدة خليفة!!.. فأنا زوجة انقلابي وابنة انقلابي وأم لفتى لا أستبعد أن يتهم قريبًا بأنه انقلابي!.. الفرق أن زبيدة لا أحد يشكك في عروبتها..
أما أنا فلكون أجدادي جاؤوا من إيران فما زال هناك إلى اليوم من ينتقص من «عُمانيتي»، ولهذا السبب أيضًا تم اتهام أبي بتلك التهمة الباطلة «التخابر مع دولة أجنبية لقلب نظام الحكم» والمقصود بهذه الدولة الأجنبية طبعًا هي إيران.. ذات يوم ثرتُ على بسيوني سلطان ثورة عظيمة بسبب عبارة ندت عنه لم أستطع أن أعتبرها إلا عنصرية..
قال لي ونحن نشرب الشاي في مكتبي: «عارفة يا زينب.. انتو الإيرانيين أجدع ناس».. صرختُ في وجهه: «أنا عُمانية ابنة عُماني.. غصبًا عن اللي ما يعجبه».. ارتبك بسيوني وقال بتلعثم: «مش قصدي والله.. ما تآخذنيش..

أنا بسمعكم كده بتقولوا «زنجباريين» للعمانيين اللي جايين من شرق أفريقيا، وانتي قلتي لي مرة أن أصلكم من إيران فقلتُ يعني أكيد بيسموكم إيرانيين.. ما تزعليش مني والنبي».. رددتُ عليه بصرامة: «كلنا عمانيين.. واللي يقسمنا عرب وعجم وبلوش وزنجباريين وما أدري أيش أنا أعتبره عنصري».. كان لافتًا أنه استفزني أخيرًا وأنا التي كنتُ أنصحه بعدم الانجرار وراء استفزازات سالم الخنصوري، لأن موظفي وموظفات الجريدة لم تعد لهم تسلية سوى حكايات كرهه لعبد الناصر لدرجة أنهم باتوا يسمونه «بسيوني سيفون».. قال لي بصوته الرقيق وكأنه يهمس: «أصلك ما تعرفيش يا زينب المر اللي أنا شربته من الزفت اللي ما يتسماش ده الله لا يرحمه».. سألته: تقصد عبدالناصر؟.. أجاب: «أيوه هو الزفت ده.. مين غيره يعني؟!.. أنا عارف الناس دي مخدوعة فيه ليه؟!!.. دول ما عاشوش أيام الملكية.. اسأليني أنا يا زينب.. والله كانت أجمل أيام.. كنت أفصّل البدلة بالقطن المصري باتنين جنيه بس، تخيلي.. لغاية ما جا الزفت ده وخربها وقعد على تلها.. بدل ما يوجه جيشه لدولة إسرائيل الجديدة اللي ما بقالهاش كام سنة ويحجمها راح يعدم جنوده في اليمن.. مليونين جنيه يوميًا كانت الخزينة المصرية بتخسرهم من الحرب المنيلة بنيلة دي، ده غير أولادنا اللي راحوا هدر».

قلتُ له: «يا شيخ، الرجل صار في ذمة التاريخ.. انسى عاد».

ـ أنسى أيه يا زينب؟!!.. أنسى خمسة وتلاتين سنة من عمري وأنا في الغربة؟!.. أنسى عُمري اللي راح هدر، كله علشان واحد ما يستاهلش.. تاريخ أيه وجزمة أيه يا زينب!..

مع الوقت توطدتْ علاقتي به، وأدخلتُه في الجمعية التي أشرف عليها، كان الرجل الوحيد ضمن اثنتي عشرة امرأة وفتاة، ولكنهن لم يعترضن لثقتهن بي.. وكان في بعض الأحيان يطلب مني بعد نهاية مناوبته أن أوصله إلى بيته فأفعل.. وعندما كان يتحدث في الطريق عن نواقص في بيته كنتُ أمرره على مجمع «اللولو» التجاري ليأخذ أكياس طحين وزيت وغيرها من اللوازم..

مرة دخل علي في المكتب ووجهه يغلي من الغيظ.. سألته «ما لك يا شيخ».. قال: «رئيس التحرير قال لي انته أحسن المصححين الوافدين في الجريدة».. قلتُ له: «وأيش فيها؟».. رد علي بغضب: «فيها أيه؟!.. بعد خمسة وتلاتين سنة هنا في عمان لسّه بتسموني وافد؟!.. امتى بقا حتحسوا إني عماني زيكم؟».. ابتسمتُ داخلي بسخرية، فها هو لمجرد عيشه في عُمان خمسة وثلاثين عامًا يعتبر نفسه عمانيًا بينما يستكثر علي وعلى عائلتي أن نكون عمانيين رغم أننا هنا منذ عشرات السنين.. ولكنني مع ذلك أكبرتُ فيه هذه الروح، روح الانتماء إلى مكان يعيش فيه لدرجة أنه يغضب عندما تسميه وافدًا، فقلتُ له وأنا أبتسم: «اليوم العصر بوديك مكان تحس فيه أنك عُماني أبًا عن جد»..

- 8 -

رئيس قسم المحليات: غاندي يفطر بـ«سويويا»!

يحسب لزينب العجمي أنها الوحيدة في عُمان ربما التي استطاعت أن تُخرج هذا العجوز من قوقعته.. أنا حتى هذه اللحظة غير مصدق أن بسيوني سلطان عندما قرر الخروج من قنه في جريدة المساء لم يجد غير «ساحة الشعب» ليذهب إليها!.. هذا يدل على أن تأثير زينب فيه وصل إلى مراحل متقدمة!.. أذكر ذلك اليوم جيدًا.. كانت ساحة الشعب التي شدد علينا رئيس التحرير أن نسميها ساحة مجلس الشورى في تغطياتنا الصحفية تعج بمئات المعتصمين.. ليس مهمًا الاسم يا أستاذ مرهون.. المهم أن هذه الساحة هي التي أرتنا وجهًا جديدًا لعُمان لم أكن شخصيًا أحلم يومًا وأنا في أشد حالاتي تفاؤلًا بأن أراه.. كان رئيس التحرير يعرف أنني من المواظبين على هذه الساحة وإن لم أكن من المعتصمين الدائمين فيها، ولهذا ربما اختارني أنا عندما سُمِحَ له بتغطية أخبار الاعتصام.. فكوني رئيس قسم المحليات لم يكن يشفع لي في السابق لتغطية بعض الأحداث المهمة في السلطنة بسبب خوف الأستاذ مرهون مما يسميها «شطحاتي».. ولكن في ساحة الشعب يبدو أن الأمر مختلف.. يعرف أنها قضيتي

الشخصية وسوف أكون مخلصًا في نقل صورة حقيقية.. ولكن هل الأستاذ مرهون يريد حقًا صورة حقيقية أم أنها مناورة من جهات أعلى مني ومنه؟!.. لماذا إذن كانت جريدتنا سباقة إلى وصف معتصمي صحار بالمخربين؟!.. ولماذا حذف الأستاذ مرهون كلمة «الشهيد» في وصفي للغملاسي في الخبر القصير الذي جاهدتُ لنشره فنُشِر بصعوبة بالغة!.. أذكر أنني عندما قلتُ له ممتنًا: «أنا سعيد جدًا يا أستاذ لأنك اخترتني لتغطية أخبار الربيع العماني»، امتقع لونه فجأة واستشاط غضبًا وقال وهو يعض على أسنانه من الغيظ: «يا بو الشباب، يا بو الشباب.. قلت لك ألف مرة ما اسمه الربيع العماني.. اسمه الحراك.. الحراااك.... لا تطلع لي قرون من فضلك».

أعدك يا أبا سليمان أنك لن تندم على تغطيتي هذه، ولن تكرر لي تلك الصرخة التي أطلقتَها في وجهي في ذلك الصباح المشؤوم قبل عدة سنوات: «حشرتني.. حشرتني.. هذي الجريدة بتتسكر والسبب بلاويك».. كان الوزير مسعود الميمني قد اتصل به شخصيًا غاضبًا وهدده بمقاضاة الجريدة، زاعمًا أنني نسبتُ إلى الوزير تصريحًا لم يقله.. كان هذا الوزير قد دعا الصحفيين إلى مؤتمر صحفي بحضور مدراء عموم وزارته لتدشين مشروع مهم يفيد المواطن كما جاء في ديباجة الدعوة المكتوبة.. ذهبنا نحن الصحفيين إلى قاعة الاجتماعات في تلك الوزارة في العاشرة صباحًا كما طُلِب منا.. رحب بنا الوزير وشكرنا

على جهودنا في إيصال رسالة الحكومة إلى المواطن وتحدث بكلام إنشائي عن أهمية المشروع الذي سيحدث نقلة في حياة المواطن دون أن يخبرنا كيف.. ثم ما هي إلا دقائق حتى قال معاليه: «من فضلكم المصورين يطلعوا برا علشان نواصل اجتماعنا»!.. طبعًا كان معاليه يقصد الصحفيين، الذين خرجوا جميعهم بمن فيهم مصور جريدة المساء.. أما أنا فقد تغابيتُ وقلتُ لنفسي: «لن أخرج، فأنا لستُ مصورًا».. هكذا كنتُ سأبرر لو أن أحد المجتمعين انتبه لوجودي.. ولكنهم على ما يبدو لم ينتبهوا إلا للوزير.. ففي حضرته لا يجوز الانتباه لأي إنسان آخر.. أخرجتُ دفتري الصغير وأخذتُ أسجل بشكل حرفي ما كان يتفوه به.. ولأنه اطمأن إلى أن الصحفيين خرجوا فقد تكلم بلا تحفظ: «عشان ينجح هذا المشروع نحتاج حملة إعلانية كبيرة لإقناع المواطن بيه.. انتوا عارفين طبعًا إن المواطن غبي وما يتقبل بسهولة المشاريع الجديدة اللي تعتمد على التكنولوجيا».. في الصباح التالي كانت كل الجرائد تتحدث عن مشروع الوزير مسعود الميمني وتكيل له المديح.. وهكذا كانت أيضًا جريدة المساء، ولكني أضفتُ إلى الخبر تصريحه عن المواطن.. ويبدو أن الوزير تلقى توبيخًا شديدًا من مجلس الوزراء على هذا التصريح فحاول أن يتنصل منه، واتصل برئيس التحرير وزعم أنني تقولتُ عليه.. قلتُ للأستاذ مرهون: «أخبره أن تصريحه مسجل وأنا مستعد لإظهاره إن لزم الأمر».. عندما علم الميمني بأن كلامه مسجل خفت حدة لهجته التهديدية واكتفى بطلب اعتذار مني

في مكان نشر الخبر نفسه في الصفحة الأولى.. طبعًا رئيس تحريرنا المتزلف لم يكتف بالاعتذار بل وعده بإتلاف التسجيل، فطلبه مني ولكني تذرعت بأنني نسيته في البيت.
كتب الأستاذ مرهون الاعتذار بنفسه في صدر الصفحة الأولى: «بسبب خطأ فني غير مقصود نسبتْ جريدة المساء في عددها الصادر يوم أمس تصريحًا غير دقيق إلى معالي الوزير مسعود الميمني في معرض الحديث عن مشروع وزارته الكبير، وذلك بسبب تداخل خبرين في مكان واحد، وهذا أمر يحدث كثيرًا في الصحافة.. وإذ تعتذر الجريدة عن هذا الخطأ غير المقصود فإنها تؤكد إيمانها المطلق بإخلاص ووطنية معالي الوزير الميمني وحبه الشديد للمواطن وإيمانه بذكائه ونبوغه الفطري كونه أساس عملية التنمية وركيزتها.. ويسرنا أن نعيد نشر الخبر مرة أخرى، مع خالص الاعتذار للقارئ».. ثم وضع الخبر أسفل هذا الاعتذار بدون التصريح المثير.. لحسن الحظ أن رئيس التحرير سافر في تلك الليلة إلى الكويت لحضور مؤتمر القمة الخليجي، ولأنها مناوبتي المسائية في الجريدة، فقد عمدتُ إلى شطب الاعتذار والإبقاء فقط على الخبر المعاد.. وعندما قرأه الوزير في الصباح التالي ظن أن هذا هو الاتفاق الذي أبرمه معي رئيس التحرير، فسكت عن الأمر.. وحتى هذه اللحظة لم يدْرِ الأستاذ مرهون أنني شطبتُ اعتذاره، وأنه ليس لدي أي تسجيل للحوار كما زعمتُ!.. المصور الذي رافقني في تلك الحادثة (سعيد المطروشي) هو نفسه الذي رافقني بعد ذلك إلى ساحة

الشعب.. وصلنا إلى الساحة قبيل المغرب.. كانت المواقف مكتظة بالسيارات ونجحنا بصعوبة في العثور على موقف على الرصيف! ونزلنا ودخلنا إلى ساحة الشعب وقابلتنا اللافتات.. طلبتُ من سعيد أن يصورها لافتة لافتة وأنا سأختار من بينها فيما بعد ما يصلح للنشر.. إن وافق رئيس التحرير فإن الصورة الرئيسية في هذه التغطية ستكون صورة أحد المعتصمين وهو يحمل «نبتة» في يده اليمنى ولافتة في يده اليسرى تقول: «نبتة طيبة وشعب حر».

توجهتُ ناحية زينب، وما إن رآني بسيوني حتى أدار ظهره مبتعدًا وهو يقول بصوت مسموع: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».. هذا الرجل بات يتفاداني منذ وجه إليه حسن العامري تلك النصيحة الذهبية الماكرة: «احذر أن تسب أو تشتم أو تخطئ بقول أو فعل أمام سالم الخنصوري، وخصوصًا إذا ما رأيته ممسكًا بهاتفه النقال، إنه يصوّر كل شيء، وسيستخدمه ضدك إن لزم الأمر»، عندما أخبرني العامري بذلك ضاحكًا قررتُ أن أختبر بسيوني، أخذتُ السوداني عثمان الميرغني من يده من قسم التصحيح وتوجهتُ به قبالة باب قن بسيوني الذي كان ينظر إلينا بنصف عين، وهناك سألت الميرغني وأنا أرفع الموبايل في يدي: «إلا كيف كانت طبيعة العلاقة بين جمال عبدالناصر وجعفر نميري؟»، ولم يكد عثمان يبدأ رده بالقول: «والله يا زول...» حتى صُفِقَ باب القن في وجهينا بشدة ولكن دون أن نسمع صوت بسيوني.. منذ ذلك اليوم

وأنا ألاحظ أنني إذا ما سلكتُ فجًا في تلك الجريدة سلك بسيوني فجًا غيره وكأنني الشيطان، لدرجة أن العامري علق مازحًا بأن بسيوني مصاب بمرض خطير نادر اسمه «الخنصوريزم»!.. أعجبني هذا التشبيه لحظتئذ، خصوصًا أنه صادر عن العامري المعروف في الجريدة بتشبيهاته الساخرة.. يكفي أنه هو أول من شبه بسيوني بالسيفون، وأول من أطلق على مخزنه الصغير «القن».. لكنني عندما أويتُ إلى سريري آخر الليل تساءلتُ في داخلي بحزن: هل حقًا أنا شرير إلى هذه الدرجة؟!.. إلى درجة أن أُعتَبر مرضًا خطيرًا لإنسان ما على هذه الأرض؟!.. لماذا أتلذذ بمضايقة بسيوني رغم أنني في داخلي لا أكرهه؟!.. لاحظوا أنني لم أقل إنني أحبه أيضًا، بل إنني سأستغرب إن وجدتُ شخصًا يقول لي إنه يحبه.. إنه من ذلك النوع من البشر الذي ينفّرك منه بمجرد رؤية وجهه المتجهم، فكيف إذا سمع المرء شتائمه البذيئة أو جدالاته العقيمة؟!.. ولكن ألسنا جميعنا نغضب ونشتِم عندما يستفزنا أحدٌ؟!.. أعرف أن بسيوني يحقد عليَّ بشدة، ربما بمقدار حقده على عبدالناصر.. ولكن ألستُ أنا سببَ هذا الحقد؟!.. ألا يعني تلذذي بمضايقته أن ثمة بذرة حقد داخلي أنا أيضًا، يؤججه بسيوني بشتائمه وشكاواه، وأنا بدوري أؤجج حقده بتذكيره بالشخص الذي يود لو ينساه.. عليَّ أن أعترف لكم أنني أشعر الآن أنني أقل حقدًا وأكثر صفاء نفسيًا خلال هذه الفترة التي غاب فيها بسيوني عن الوعي.. لا تفهموني خطأً من فضلكم: فأنا أكثر إنسان على هذه الأرض سيحزن

لو لم يُفِقْ بسيوني من غيبوبته هذه.. أنا فقط كنت أقول إنه بمجرد أن نام حقد بسيوني نام حقدي أنا أيضًا، وكأنهما توأم سيامي لا يمكن لأحدهما العيش بدون الآخر.. ولكن حقد بسيوني ـ وهذا اعتراف آخر ـ كان أكثر شرفًا ونبلًا من حقدي: فهو يظهر بوضوح وبلا مواربة ولا نفاق، يغضب بسيوني فيشتمني أو يلعنني أو يشكوني دون أن يغيّر وجهه المعروف لدى الجميع.. أما أنا فعندما أغضب منه فإنني أجاهد نفسي لكي لا تخرج مشاعري الغاضبة على هيئة صرخة أو شتيمة أو شكوى.. أخلع وجه الذئب الغاضب وأضع مكانه وجه الحمل المبتسم الذي لا يجد ما ينفّس به عن غضبه سوى تذكير بسيوني بما يكره.. إذا لم يكن هذا شرًّا فما هو الشر؟!.. عندما كنتُ في المدرسة كان زملائي يطلقون عليّ «سالم سوسة».. صديقي عبدالمجيد زروقي علق عندما أخبرته بهذا اللقب: «إذن فأنت أصلك تونسي، لأن سوسة مدينة تونسية عريقة».. مدرس الرياضيات الأردني أطلق عليّ هذا الاسم بسبب إستراتيجيتي في الدفاع عن نفسي التي لا أريد أن أزعم أنني ابتكرتُها، ولكن سأقول إنني اكتشفتُ نجاحها آنذاك فصارت أشبه بخارطة طريق لي في حياتي المقبلة.. كان في صفي تلميذ وسيم آتاه الله شطرًا من الجمال اليوسفي اسمه منصور بن علي السيباني.. كان منصور هذا محبوبًا من جميع المدرسين، ليس لأن وجهه جميل وعينيه خضراوان فحسب، بل أيضًا لأنه متفوق في دراسته، وضعيف في بُنيته.. هذا الضعف في بنيته هو سر قوته.. ألا يقول المثل: «يضع سره في

أضعف خلقه»؟!.. بمجرد أن يرى المرء منصورًا يشعر بالشفقة على هذا الطفل الذي يشبه العصا من نحافته، بينما معظم طلاب الصف يفوقونه في البنية الجسمانية.. إلا أن منصورًا هذا كان شقيًا وخبيثًا: يبدأ بمشاكسة الأولاد فيضربونه، وعندها يذهب إلى مربي الصف أو المدير ليشتكي وهو يبكي!.. بمجرد أن يراه المعلم أو المدير يبكي يصدر حكمه الصارم الجازم أن هذا الولد تعرض لظلم، إذ لا يدور في باله أن هذه «العين» يمكن أن تكون متجنيةً على ذلك «المخرز».. كان منصور يجلس في المقعد الذي أمامي مباشرة.. ومرة كنا في حصة الرياضيات فالتفت إليَّ وقال: «أيه الدبدوب.. عطني مسطرة».. غضبتُ طبعًا من تعييري ببدانتي وضربتُه ضربة خفيفة بيدي على قفاه، فما كان منه إلا أن صرخ صرخة قوية وأخذ يتلوى بشكل تمثيلي.. المعلم الأردني خلدون الشديفات الذي كان للمصادفة غير السارة مربي صفنا لم يكتفِ بضربي بالعصا وهو يتساءل بغضب: «هاظ قدك يا هامل؟!»، ولم يكتفِ بتكملتي بقية الحصة رافعًا يديَّ الاثنتين إلى جدار الصف الخلفي، بل أصر ألا أدخل المدرسة في الغد بدون ولي أمري.. كان عقاب آخر ينتظرني في البيت من أبي بمجرد أن عرف باستدعائه، دون حتى أن ينتظر ليسمع السبب.. ذلك أن المدرْسة لا تستدعي أولياء الأمور في العادة إلا في المصائب الكبرى.. شعرتُ بالظلم الشديد.. العقاب لم يكن قط من جنس العمل: إيذاء جسدي ونفسي ومعنوي في حين أن منصور هو البادئ بالظلم ولم يقل له أحد شيئًا..

أخذتُ أتأمل بعقلي الطفولي ما صار فوجدتُ أن الخطأ الفادح الذي وقعتُ فيه أنني مددتُ عليه يدي بحضور الجميع، بحيث لم يكن لديّ أية فرصة للتملص من تهمة الاعتداء التي لبستْني.. لمتُ نفسي كثيرًا وقلت: «في المرة القادمة لن أكون بهذه الغباوة».. لحسن الحظ لم تكن المرة القادمة بعيدة، وجاءت بالصدفة القدرية المحضة.. فبينما كنا في الفسحة رأيتُ زميلًا لنا اسمه سعيد الضو يتعارك لفظيًا مع منصور.. سعيد يقول: «سويويا» ومنصور يصرخ: «اسكت»، ويعود سعيد ليقول: «سويويا» فيعود منصور إلى الصراخ: «قلت لك لا تقول سويويا».. عرفتُ يومها أن منصور يغار من هذه الـ«سويويا» أو «العجائن الغذائية» كما كان يحلو لمعلم اللغة العربية أن يتشدق.. ومن هنا بدأ انتقامي: لم أترك فرصة لأذكر فيها «السويويا» إلا انتهزتها.. واكتشفتُ من هذا الأمر أن المخ أقوى من العضلات بكثير.. مرة همستُ في أذن منصور وكان معلم العلوم المعروف بعصبيته يشرح الدرس: «سويويا»، فصرخ منصور: «لا تقول سويويا».. غضب المعلم وقال: «مين اللي عيّط؟»، هتف الزملاء جميعهم: «منصور»، فسأله المعلم: «علاش تعيّط»؟ رد بغباوة: «أستاذ.. هذا يقول لي سويويا»، انفجرت قاعة الصف بالضحك فظن المعلم أن منصورًا يستهزئ به فطرده!.. ومرة كان معلم الدين محمد عبدالقادر يداعبنا كعادته قبل أن يدخل في الدرس فسأل زميلنا عبدالرحمن: «فطرت أيه النهاردة يا عبدالرحمن»؟ رد عبدالرحمن: «سندويتشة بيض يا أستاذ».. هنا انتهزتُ

الفرصة ورفعتُ يدي.. قال الأستاذ: «عايز أيه يا سالم يا خنصوري؟».. قلتُ: «أريد أخبرك أيش فطرت يا أستاذ».. ضحك الأستاذ وقال.. «طيب.. قول فطرت أيه يا سالم؟».. رددتُ: «سويويا».. فصرخ منصور بغضب: «لا تقول سويويا».. رد عليه الأستاذ بحزم: «الله.. وأنت مالك يا منصور!.. يفطر سويويا.. يفطر جبن.. يفطر عيش.. أنته دخلك أيه.. أوعى تعلي صوتك تاني».. وتوالت انتقاماتي من منصور والمحور واحد: «السويويا»!، لدرجة أنه لُقِّب في الصف، ثم في المدرسة كلها: «منصور سويويا».. واليوم بإمكانكم أن تذهبوا إلى وزارة الإسكان وأن تطلبوا في الاستقبال مقابلة مدير توزيع الأراضي الأستاذ منصور السيباني.. صدقوني لن يعرفه أحد إلا إذا قلتم: «نريد أن نقابل الأستاذ منصور سويويا»!.

مضتْ عدة سنوات ودخلتُ الثانوية.. وذات إجازة صيفية شاهدتُ فيلم «غاندي» لأنبهر بهذه الشخصية التي كنتُ أفعل ما تفعله تمامًا دون أن أدري أو أقصد: سياسة اللاعنف واستفزاز الخصم ليكون البادئ بالخطأ.. كان لغاندي «سويوياه» التي يغيظ بها الإمبراطورية البريطانية فيعري غباوتها أمام العالم، حيث لم تجد في نهاية المطاف بدًا من ترك الهند لأهلها.. بعد هذا الفيلم بحثتُ عن سيرة غاندي وتشربتها، وكم كانت دهشتي قوية وأنا أقرأ مقولته التي صور لي غروري من قبل أنني الوحيد الذي فكر في معناها: «إن اللاعنف هو أعظم قوة متوافرة للبشرية، إنها أقوى من أقوى سلاح صنعتْه براعة الإنسان».. الهنود

يلقبون غاندي بالروح العظيمة، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقنعني أن هذه الروح العظيمة لم تكن تعرف الحقد.. مؤكد أنه كان يحقد على الانجليز، فلا يمكن للمرء ألا يحقد على مستعمري بلاده.. ولكنه نفَّس عن هذا الحقد بطريقة جعلتْه يبدو بطلًا ليس لأبناء جلدته فقط، بل لجميع الأحرار في العالم: أن تستفز خصمك وأنت تبتسم لتدفعه إلى التغيير.. غضبتْ بريطانيا في البداية، وكابرتْ، ولكنها في النهاية رضخت لاستفزازات غاندي وخرجت من الهند.. هذا بالضبط ما كنتُ أفعله مع بسيوني.. غضب وكابر ولكنه صار في أيامه الأخيرة قبل الغيبوبة يسمع اسم عبدالناصر دون أن يصرخ أو يشتم.. لقد روضتُه كما يروض مدرب الأسود أسدًا هائجًا.. كان عبدالناصر «سويويا» ألقمتُها بسيوني رغم أنفه، ورغم فمه، ورغم معدته.. أنتم تسألونني الآن إن كنتُ أنا من تسبب له بهذه الغيبوبة أم لا.. الإجابة نعم.. أنتم تعرفون المثل الصيني الذي يخبرنا أنه ليس شرطًا أن الضربة المائة هي التي فلقت الصخر، بل مجموع الضربات جميعها.. وهذا ما حدث لبسيوني بالضبط: فالضربة المائة كانت ضربة الذي انتحل شخصية عبدالناصر، ولكن معظم الضربات التسع والتسعين التي سبقتها هي ضرباتي أنا.. كنتُ أكثر رجل يكرهه بسيوني في تلك الجريدة، وأكثر رجل يغيظه، في حين كانت علاقته طيبة بالشيخ داود وزينب العجمي التي يسجل لها التاريخ أنها أخرجتْه من قمقمه ـ كما أخبرتكم ـ وأحضرتْه إلى ساحة الشعب في عز أيام الربيع العُماني.. قلتُ لزينب:

«يبدو أن رئيس التحرير خاف من شطحاتي فأرسلك أنتِ أيضًا لتغطية الاعتصام»؟.. قالت: «كلا.. ولكني جئتُ هنا لأطمئن إلى ابني علي، وهو أحد ناشطي الاعتصام كما تعرف».. سألتُها: تقصدين من؟.. قالت: «علي الخروصي».. قلتُ مندهشًا: «علي الخروصي.. ابنك؟!».. قالت: نعم.

شعرتُ أنني أتعرف لأول مرة إلى هذه السيدة الخمسينية اللطيفة رغم أنها زميلتي في الجريدة منذ أكثر من سبع سنوات.. قلتُ مستغربًا: «الأسبوع الماضي أَمَّنا علي في صلاة الجمعة هنا في الساحة، وما أنا متأكد منه أنها لم تكن صلاةَ شيعي!»، ابتسمتْ قائلة: «ألا يصير أن الأباضي أمُّه شيعية؟!».. قلت بغبطة: «بلى، يصير.. حصريًا في عُمان»، كم أحترم هذه المرأة.. هي تعرف أن ولدها من ناشطي الاعتصام، وهو بالذات ممن تنشط المنتديات الالكترونية المشبوهة في تشويه صورته وتصويره ذا أجندات سياسية مدعومة من الخارج، ومع هذا فزينب لا تمارس عليه أي ضغط ليترك الاعتصام، وتمارس حياتها في الجريدة بشكل طبيعي، بل تزوره هنا عندما تشتاق إليه.. قلتُ لها وأنا أحني رأسي: «ليس لدي سوى هذه الكمة لأخلعها احترامًا لك.. لم أكن أعرف أنك تحبين عُمان إلى هذه الدرجة»، قالت وهي تبتسم: «تعرف ما هي مشكلتنا في عُمان؟!.. أننا جميعًا نحبها، ولكن جميعنا يريد احتكارها لنفسه.. أنا أحبها، وأنت تحبها، والسلطان، والوزراء، ورئيس التحرير، والفنان صالح زعل، والشاعر

سيف الرحبي، والمذيع حسن الفارسي، واللاعب علي الحبسي، وأجهزة الأمن، والشرطة، وخفر السواحل.. لو أن كلًا منا سمح للآخر بالتعبير عن حبه لها بطريقته لصارت عمان جنة». سألتُها: «وبسيوني؟!.. ما الذي أتى به إلى هنا».. قالت: «أولًا أرجوك، ومن أجلي، لا تحاول أن تضايقه بجمال عبدالناصر هنا».. ابتسمتُ: «لكِ ذلك.. ولكنك لم تجيبي عن سؤالي».. قالت: «أنت لا تعرف الشيخ بسيوني كما أعرفه.. بقدر سعادته بثورة 25 يناير هو حزين أنه لم يكن هناك في ميدان التحرير، ولم يشارك فيها بجسده وإن كانت روحه محلقة هناك كما يقول.. دموعه كانت تنهمر في كل مرة يذكر فيها الثورة المصرية التي قامت في غيابه، وميدان التحرير الذي بات أيقونة عالمية.. اليوم شكا لي أيضًا أن العمانيين مازالوا يعتبرونه وافدًا رغم أنه قضى نصف عمره هنا، فواتتني فكرة أن أحضره إلى الساحة لأضرب عصفورين بحجر واحد: أُشعره أنه عُماني، وأريه مكانًا قريب الشبه بميدان التحرير.

تركت زينب وأنا أفكر للمرة الأولى أن «ساحة الشعب» نسخة مصغرة من ميدان التحرير.. ولكن لا.. ميدان التحرير هو ميدان التحرير، وساحة الشعب هي ساحة الشعب.. المكان منظم بشكل مثير للإعجاب.. هناك منصة ليتحدث عليها المعتصمون، وميكروفون، وخيم.. وبُسط.. وماء وخبز وشاي.. ستقول المحامية بسمة مبارك بعد ذلك وهي تتحدث للجمهور «إننا قبل أسبوع واحد فقط لم نكن نحلم أن نجلس هنا ونتحدث

بهذه الحرية».. صعد على المنصة شعراء ومطاوعة وموظفون حاليون وسابقون ونساء ومواطنون عاديون وإعلاميون.. كل عبر عن نفسه بدون خوف، مستقويًا بالجماهير، وهناك من يوثق هذه الخطابات بهاتفه، سواء أكان من المعتصمين، أم بعض المشتبه فيهم المنتمين إلى جهاز الأمن.. صعد الأديب عبدالله حبيب وتحدث عن أهمية هؤلاء المعتصمين الذين يصفهم الإعلام بالمخربين والرعاع.. وصعد الشاعر محمد الحارثي وقرأ قصيدة سعدي يوسف عن مصر التي أهداها إلى أحمد فؤاد نجم.. ماذا سيقول بسيوني الآن وهو يستمع إلى حِداثي يقرأ شعرًا لحِداثي آخر كتبه بدوره عن حِداثي ثالث!!.. وصعد رجل ملتح وتحدث عن أن سبب كل هذه المشاكل الاقتصادية والغلاء وعدم وجود وظائف هي البنوك الربوية، لأن الله ورسوله يحاربان المتعاملين بالربا.. وصعد موظف مستقيل بوزارة العدل وتحدث عن كثير من التجاوزات والفضائح التي كانت تمر عليه بصفته الوظيفية، وقال إن الكثير من القضايا تحفظ ولا تحول إلى القضاء لمجرد أنها تخص أقرباء لمسؤولين كبار.. تُرى هل سيسمح الأستاذ مرهون بنشر كل هذا؟!.. أحد تجار الاسمنت البسطاء صعد إلى المنصة وتحدث عن الفساد في توزيع الاسمنت «قال لك هذا سنج إنسان شريف»، «سنج يعطوه ست تريلات سميت والتجار الشريفين يعطوهم تريلة واحدة بس»، «يجي واحد مستثمر صليبه ذراع يعطوه وأنا ما يعطوني»، ثم صعد إلى المنصة

عبدالمطيع بامخالف عضو مجلس الشورى الذي قال: «كل مطالب أبنائنا سلمت إلى المقام السامي باليد، وصاحب الجلالة مهتم بكل المواضيع، وأقسم بالله صافحنا باليد».

كل هذا وأنا أرى زينب وبسيوني جالسَيْن على حصير أمامي وهما يستمعان باهتمام.. فكرتُ أن أذهب لأشاكس بسيوني وأقول له إنك إذا أردتَ أن تشعر حقًا أنك عماني فعليك أن تخلع حذاءك قبل أن تتمدد على البساط!.. ولكن سعيدًا أنقذه مني عندما بدأ يريني اللافتات التي صورها:

- حرية عدالة اجتماعية
- قابوس أنت الأفضل لعمان
- قتل الحرية يساوي قتل الإنسانية
- نطالب باستقلال القضاء والفصل بين السلطات
- نعم لمحاسبة الفاسدين وحماية المال العام
- نطالب بتعويض الأطباء عن المناوبات والعطلات الرسمية والأعياد
- تضررنا من قرار وزير الثروة السمكية رقم 13/ 2009
- مجلس الوزراء صح النوم
- نحن نحبك قابوس، لا تخسر شعبك، لماذا لا تحاسب المفسدين؟
- أين العدل يا وزارة العدل؟
- الحرية عروس مهرها الصمود والثبات

- نعم لمطالب الشعب، لا للغوغائية والشغب
- صحار لم تطلب إلا الإصلاح
- الاعتصام حتى تحقيق المطالب
- الشعب يطالب بصندوق الزواج
- تدني الرواتب يزيد المتاعب
- المعيشة غالية والجيوب خالية
- المطالبة بدستور المستقبل
- نعم لفصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية
- إما الشعب وإما الفساد

* لا للفساد، لا للمحسوبية، لا للفتنة

قطع استرسالي في قراءة اللافتات صراخ زينب: «من فضلك خليني في حالي وإلا ترا ما يحصل لك طيب».. كان أمامها وهي تطلق هذا التهديد بسيوني ورجل عُماني ملتح.. من منهما يا ترى أخرجها عن هدوئها؟!.. قمتُ من فوري لأستطلع الخبر: «خير إن شاء الله.. أيش صار؟».. قام بسيوني مبتعدًا وهو يقرأ سورة الفلق بصوت مسموع، وكان الملتحي قد سبقه في اتجاه معاكس.. قالت زينب: «مر علينا قبل قليل رجل ملتح وطلب مني أن أنتقل إلى خيمة النساء فاعتذرتُ له بلباقة وقلتُ له إنني مرتاحة هنا، فعاد أدراجه.. وبعد قليل جاءني ملتح آخر وطلب مني الأمر ذاته فرددتُ عليه الرد نفسه فأوضح لي أن الهدف هو حمايتي فسألتُه باستنكار: «تحميني ممن؟!!، معظم

الموجودين في سن ابني» فرجع.. وعندما جاءني الملتحي الثالث خرجتُ عن طوري ونهرتُه».. في هذه اللحظة مر بنا صديق الساحة أحمد الراشدي وهو يحمل «دلة» شاي وعلى صدره لافتة كُتِبَ عليها «لا مكي لا مقبول للمشروبات الساخنة».. طلبتُ منه نصف كوب وأعطيته لزينب وأنا أقول مواسيًا: «انظري إلى النصف المليء من كوب الشاي.. قبل هذه الأيام لم تكن التيارات المختلفة في عُمان قادرة أو راغبة في الجلوس بعضها إلى بعض والتحاور فيما بينها.. مجرد أن تري المتدينين والليبراليين والتيارات المختلفة في مكان واحد هي خطوة في الطريق الصحيح.. ثمة أخطاء من هذا الطرف أو ذاك لا شك، ولكن مثل هذه الأمور لا بد منها ما دمنا نغذ السير إلى عُمان الجديدة».. كان بسيوني يقف غير بعيد منا ينتظرني أن أغادر على ما يبدو ليعود، عندما حانت اللحظة الحاسمة التي عاد فيها الأديب عبدالله حبيب إلى المنصة: «أنتم تعلمون طبعًا، أن أكثر صورة تُرفع حاليًا في الربيع العربي هي صورة الزعيم جمال عبدالناصر.. أنا أريد أن أقرأ عليكم يومية من يومياتي كتبتها في أمريكا ونشرتُها أخيرًا في ملحق شرفات الثقافي عن هذا الرجل تدل أيضًا أننا نحن العمانيين لم نكن يومًا أقل حبًا له.. لكن لدي توضيح قبل أن أقرأ: هذا الكلام الذي سأقرأه عليكم لا يعكس بالضرورة موقفي باعتباري مواطنًا عربيًا من جمال عبد الناصر الذي ـ شخصيًا ـ ما زلت أعتقد أنه أهم زعيم عربي معاصر («ارفع رأسك يا أخي»!، وهذا وحده يكفي في هذا الزمن المنخفض) بغض

النظر عن أخطائه و«تهوُّراته» السياسية، وأخطاء، وقصور، وضمور، وفجور، وخيانات أركان نظامه التي أدت إلى نكسة 67 المريعة، إلخ، إلخ؛ وإنما يتعلق الأمر بسرد ذاكرة قصة قصيرة كتبها شخصي المتواضع»..

كانت زينب توزع نظرها بارتباك المستشعِر خطرًا بين بسيوني وبيني وبين عبدالله حبيب وهي تضع كلتا يديها على رأسها علامة المصيبة المُحْدِقة.. رفعتُ لها يديّ معتذرًا ومؤكدًا أن هذا الموضوع هو مجرد صدفة ولا دخل لي فيه.. بل هو قضاء وقدر.. نعم.. لستُ أنا من سحب السيفون هذه المرة.

- 9 -

عبدالله حبيب:

المشي في جنازة رجل عظيم

الأحد، 20 ديسمبر 1998

أوستن.

اليوم كتبت قصتي القصيرة «الرجل العظيم» في جلسة واحدة وفي أقل من صفحة واحدة، ولا أريد أن أحذف منها ولا أن أضيف إليها كلمة واحدة. لا أريد أن أكون مُقتِّرا مبتسرًا، ولا أريد أن أكون مسهبًا ثرثارًا. لم يحدث من قبل أن كتبت نصًا قصصيًا بهذه السلاسة. لو أخبرت أي شخص على وجه هذه البسيطة أن هذا النص يتخمر في رأسي، ويتشكل، ويعيد تشكيل نفسه، ويتحول منذ ثمان وعشرين سنة، وتحديدًا منذ 29 سبتمبر 1970 أو اليوم الذي يليه فإنه لن يصدق وهو معذور، وأنا معذور أيضًا. لن يصدق ذلك لأنه ببساطة في ذلك التاريخ كان عمري ست سنوات، فكيف يمكن أن «يفكر» طفل بذلك العمر في قصة قصيرة مثل هذه؟!.

ما حدث هو أنه ظهرت عليَّ عوارض مرضيَّة شبيهة بتلك التي أودت بحياة (أختي) لطيفة؛ فخشي أبي من فقدٍ رابعٍ متسارع هو الوحيد الذي بقي من ذرية أبيه فقد قضى الآخَرون مرضًا أو غرقًا. لذلك سارع مرعوبًا بجلبي للعلاج

في مستشفى طومس في مطرح التي فيها أقمنا لدى عائلة من أقاربنا. في ذلك الصباح أخذني (قريبي) عمر الأنصاري إلى سوق مطرح التي كنت منبهرًا بها أيما انبهار. رأينا حشدًا هائلًا من البشر وكان اسم جمال عبد الناصر يتردد، وكان بعض الناس ينتحب بمرارة، وكانوا يقولون: إن جمال عبد الناصر قد مات، وكانت صوره - التي كانت مألوفة لدي فقد كانت معلقة في بيتنا وبيت خالي محمد (إبراهيم) وبيت جدي - تملأ المكان. (طبعًا عبدالناصر توفي قبل ذلك بيوم أو يومين؛ أي في السادسة والربع من مساء 28 سبتمبر 1970).

كنت قد سمعت الكثير من دون أن أفهم الكثير طبعًا عن جمال عبد الناصر سوى أنه قائد شجاع وجدير بالاحترام من خلال أبي وخالي محمد الذي كان يُسمعنا خطاباته عبر جهاز تسجيل ذي بكرتين بدائيتين في غاية تعقيد التشغيل (ثمة جملة لا تزال عالقة بذاكرتي من تلك التسجيلات بصوته المؤثر: «إن حزب البعث حزبٌ عقائدي»، ولم أفهم شيئًا منها بالطبع!. مضت سنوات بعد ذلك كي أفهم الخلاف بين البعثيين والناصريين خاصة في تجربة الجمهورية العربية المتحدة). كان أبي وخالي يقولان بصورة أوتوماتيكية تقريبًا في كل تلك الجلسات: إن «جمال عبد الناصر سيحرر فلسطين»!.

انضممنا بكل فضول - عمر وأنا - إلى ما كان مسيرة تشييع رمزية لجمال عبد الناصر. طوال موكب الجنازة الرمزية الذي مضى على الكيلومترات القليلة الوحيدة

المسفلتة في البلاد عهد ذاك كنت أنظر برهبة وخوف إلى النعش المحمول على الأكتاف، وقد كنت موقنًا أن جمال عبد الناصر مستلق هناك وهو ميت مثل محفوظة ولطيفة (حبيب).

في الآن ذاته كان الأهل في حالة طوارئ وهم يبحثون عنا. أما نحن الصغيرين الشقيين فقد كان تسلق عقبة ريام مشيًا على الأقدام منهكًا لنا بما فيه الكفاية، وكنا في غاية الظمأ. على قمة العقبة كان هناك ضابط إنجليزي بملابسه العسكرية وآلة تصويره يلتقط صورًا متسارعة للسائرين في الجنازة الرمزية.

عمر وأنا أنهينا «مشاركتنا» في الجنازة الرمزية عند منطقة كلبوه حيث ذهبنا إلى بيت (قريبي) المرحوم المعلم سلمان (الفارسي) جائعين، ظامئين، فأكلنا، وشربنا، ونمنا ونحن في غاية الإنهاك. أول ما شاهدته حين أفقت هو وجه أبي الصارم العابس المتجهم. توقعت مرعوبًا العقاب الجسدي المألوف فورًا كما هو الحال في أية مخالفة أو سوء تصرف يصدران مني؛ لكن أبي اكتفى بتوبيخ لفظي قصير (ولا شك أن ذلك العفو الكريم النادر والاكتفاء بتوبيخ فقط قد حدث كرمى لجمال عبد الناصر أكثر مما هو كرمى لي)!.

لم أشارك في أي تشييع فعلي أو رمزي لجنازة «رجل عظيم» بعد تلك «المشاركة» الطفولية الساذجة التي حدثت بالمصادفة، لكن المؤثرة كثيرًا نفسيًا وعاطفيًا، بحيث إنها

ظلت عالقة بذاكرتي. لكن بمضي السنوات وتطور الوعي، صرت كلما شاهدت في التلفاز مشاهد من تشييع «رجل عظيم» تحضرني ذكريات ذلك اليوم من سبتمبر 1970. معظم ما شاهدت كان لتشييع جنائز ديكتاتورات. فكرت في التالي عبر السنوات: ماذا عن كتابة قصة قصيرة عن طفل يشارك بالمصادفة في تشييع جنازة «رجل عظيم»؟. ثم تطورت الفكرة تنويعًا إبداعيًا إلى: ماذا عن طفل يُجبَر على المشاركة في تشييع جنازة «رجل عظيم» عوضًا عن المشاركة فيها من تلقاء نفسه بسذاجة ومصادفة؟. ثم تعقدت الفكرة أكثر حين تصورت أن الطفل ذاته قد كبر وانضم لأنشطة مناوئة ضد «الرجل العظيم» جلب لنفسه بسببها حكم الإعدام. كيف سيتذكر طفولته التي شارك فيها في الجنازة المهيبة لـ «الرجل العظيم» بينما (الراوي) الآن بالغ راشد ينتظر تنفيذ حكم الإعدام تحديدًا وبالضبط لأنه انخرط في أنشطة مناوئة لـ «رجل عظيم» آخر؟. بأي لغة سيحكي؟.هل يحكي بلغة الطفولة أم بلغة الرشد؟. كيف أرقِّم نص التجربة؟. هذه هي بعض التحديات التي واجهتني في كتابة نصي القصصي القصير الذي أنجزته اليوم بعد ثمان وعشرين سنة (وأنا بالطبع أدرك أني لم أكتب «مائة عام من العزلة» بل «الرجل العظيم» فقط)!.

حسمت الأمر في صباح اليوم فاخترت أن أعود إلى ذاكرة ولغة الطفل وهو يمشي في جنازة «الرجل العظيم» ثم دفقتُهما عليه بإيقاع مختلف قليلًا وهو بالغ راشد في صبيحة تنفيذ حكم الإعدام بحقه. أردته أن يتذكر طفولته التي قادته

إلى موته عبر الفعل، وأردت أن يكون موته عودة إلى طفولته عبر اللغة. لجأت في ذلك إلى أن يكون النص مكونًا من جملة واحدة طويلة، ومن دون استخدام أية علامات ترقيم إلا في السطر الأخير حيث ترد ﴿ : ﴾ بحيث تمثّل إحداهما «الرجل العظيم» بينما تمثّل الأخرى الراوي. وعلى القارئ أن يختار أيهما «الأعلى» وأيهما «الأسفل». بكلمات أخرى من هو «الرجل العظيم» في الحكاية؟. أهو الراوي/ الطفل/ الشاب الذي على وشك الموت إعدامًا، أم الزعيم الميت/ الحي الذي سيموت الراوي/ الطفل/ الشاب بسببه، أو بسبب ذكراه؟.

أحبُّ الكلام الملتبس الذي يستمر طول العمر في جملة طويلة واحدة.

ـ 10 ـ

زينب العجمي:
سموها «نكسة»..
جاتهم وكسة!

«بطة قُذِفتْ وهي حية في قِدْر ماء يغلي».. هكذا وصف سالم الخنصوري ساخرًا الشيخ بسيوني وهو يستمع إلى صوت عبدالله حبيب الذي يروي حكايته وهو طفل مع الجنازة الرمزية لعبدالناصر.. هذا بعد أن حلف لي سالم مرارًا ألا علاقة له بالأمر، وأنه ليس أكثر من تصاريف القدر التي على بسيوني أن يتحملها!.. كان وجهه يحمر ويصفر ويسود.. تارة يصرخ بصوته الهامس الذي لا يمكن أن يصل إلى المنصة: «اخرس يا حِدائي يا متخلف..»، وتارة يصرخ: «ربنا حيحشرك معاه إن شاء الله».. قال لي وهو ينظر إلى سالم الذي كان بدوره ينظر إلينا مبتسمًا من بعيد: «شفتي الواطي ده عمل أيه؟!»، قلتُ له وأنا أحاول جاهدة الانتباه إلى كلام عبدالله حبيب: «من فضلك يا شيخ.. خليني أسمع».. أخرج من جيب بذلته العلوي مصحفًا صغيرًا وأخذ يقرأ فيه بصوت مسموع.. وعندما كانت تعلو نبرات عبدالله حبيب بقراءة يوميته كانت نبرات بسيوني بالقرآن تعلو بالتبعية، وكأنه يريد أن يضعني في مأزق الاختيار بين الأدب والقرآن!.. ستمضي شهور بعد هذه الحادثة ليسرد لي ابني علي - وهو في مكتبي بحضور سالم الخنصوري - كيف أن رفع صوت القرآن كان - والعياذ

بالله ـ وسيلة «تعذيب» في معتقله بالتناوب مع الموسيقى والأغاني العالية والإضاءة القوية بشكل مستمر ليلًا ونهارًا، وعندما شكا لهم ذلك أثناء التحقيق كان المحققون يتبادلون النظرات باندهاش يوحي بأنهم لا يعلمون شيئًا عن تلك الوسائل!.. قال سالم بمرح محاولًا التخفيف عن علي: «تخيّلا أن المعتقل هو بسيوني سلطان، ماذا كنتُما تتوقعان طريقة التعذيب؟».. وقبل أن نفكر في الإجابة عن هذا السؤال تبرع الخنصوري بالإجابة: «رفع صوت المسجلة بخطب جمال عبد الناصر أربعًا وعشرين ساعة في اليوم».. ضحكنا كثيرًا قبل أن يضيف سالم: «وطبعًا لن يشتكي للمحققين من هذا التعذيب».. سأله عليّ مستغربا: «لماذا؟»، فأجاب: «لأنه سيكون قد انتحر قبل إحالته على التحقيق!».

بعد أن أنهى عبدالله حبيب قراءته نظرتُ حولي فلم أجد بسيوني.. شعرتُ بالقلق.. فالرجل ليس لديه نقال، وهنا الجموع ليست بالقليلة.. ثم ما لبثتْ نفسي أن اطمأنتْ بعد تذكري أنه الوحيد ربما في الساحة الذي يرتدي بذلة.. ذهبتُ إلى سالم وسألتُه: «هل رأيت الشيخ؟».. وقبل أن يجيب جاءني صوت الأستاذ بسيوني هادرًا عبر الميكروفون:

«بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أنا اسمي الأستاذ محمد بسيوني سلطان، خريج الجامع الأزهر ومن علماء اللغة العربية.. عايش معاكم هنا في عُمان من ييجي خمسة

وتلاتين سنة.. درّست ناس كتير: بعضهم دلوقت بقوا وزرا، وبعضهم كتّاب، وبعضهم صحفيين، وبعضهم مذيعين.. أنا ساهمت في تشكيل جيل النهضة المباركة.. انتوا لسه شباب وما عشتوش اللي أنا عشته.. ولا شفتوش اللي أنا شفته.. أنته نفسك يا أستاذ عبدالله يا حِداثي بتقول انك كنت عيل في السنة اللي مات فيها الزفت اللي ما يتسماش.. ده رجل عظيم؟!.. أستغفر الله العظيم.. رب كلمة قالت لصاحبها: دعني.. شفت أيه انته من عظمته يا أستاذ يا متعلم يا مثقف يا بتاع «كلاوديا أروح كلاوديا أجيء»؟!.. إن شاء الله ربنا حيحشرك معاه يوم القيامة.. مش ده اللي اخترع القومية العربية علشان يضرب بيها الإسلام؟!، قال أيه الإسلاميين حيرجعونا لعصر الحمير ربنا ينتقم منه.. مش هو اللي طلع لينا بالاشتراكية، قال أيه كفاية في الإنتاج وعدل في التوزيع، كفاية أيه وعدل أيه يا روح أمك.. مش ده اللي ارتكب جريمة الإصلاح الزراعي: قال أيه كل واحد خمسين فدان بس.. طيب افرض إن ربنا كارمني بـ 300 فدان.. يعني أيه؟! أرميهم للكلاب؟!، مش ربنا هو اللي بيوزع الأرزاق؟!.. مش الراجل العظيم بتاعك ده هو اللي فصل مصر عن السودان؟!!.. مش هو اللي دمر الاقتصاد المصري بعد ما كان الجنيه المصري يساوي تمانية جنيه استرليني؟!!.. مش ده اللي جابه للحكم الأخوان المسلمين وبعدين غدر بيهم زي ما غدر بزميله محمد نجيب!!.. مش هو اللي حط ايده على قبر الشيخ حسن البنا الله يرحمه وقال «نحن على العهد سائرون» وبعدين خان؟!!.. مش ده اللي قتل الشهيد سيد قطب.. مش ده

اللي كان بيعذب الأخوان في السجون.. الله يرحمك يا أستاذ محمود عيد أبو العينين، والله لما كنا نشوف ضوافره متشالة ومتاكلة من التعذيب كانت أجسامنا تقشعر.. مش ده اللي تسبب في هزيمة كبيرة للعرب وقام المنافقين بتوع التلات ورقات سموها «نكسة»!!.. جاتهم وكسة.. كل ده وأنا لسه ما تكلمتش على اللي عمله بالعُمانيين.. مش هو ده اللي كان بينصر الشيوعيين عليكم؟!.. مش هو ده اللي تخلى عنكم في زنجبار سنة 64 وخلا الأفارقة يدبحوكم دبح!.. لحد امتى حتبقوا مخدوعين فيه؟!.. كفاية بقا.. وربنا المعبود ده كان يقدر يوقف المجزرة ضد العمانيين بالتليفون لو كان عايز.. مجرد اتصال صُغَيَّر للراجل اللي اسمه نيريري كان يخليه يترعب.. بس فخامته ما كانش عنده وقت لأنه مشغول بحرب اليمن، مشغول بإبادة جنوده المصريين في حرب ضد إخواتهم العرب.. لا وكمان أجبر الأزهر يستقبل المجرم نيريري ده ولا كأنه عمل حاجة بالعرب والمسلمين».

هنا بدأ صوت الشيخ يخفت قليلًا ويتهدج استعدادًا للبكاء: «والله أني لما قريت حكاية المدبحة دي جسمي اقشعر وبقيت أعيط وما كلتش أي حاجة لمدة أسبوع.. ازاي؟!.. ازاي العماني الطيب المسالم النبيل بيتدبح كده!.. اهئ.. اهئ.. اهئ».

تعالى تصفيق الحضور الذي استمر فترة طويلة لم يقطعه إلا صرخة أحد المطاوعة: «تكبير» فرد عليه زملاؤه: «الله أكبر».

لم أرَ بسيوني سلطان سعيدًا في حياتي كما رأيتُه تلك الليلة التي أسميتُها وأنا أحكي تفاصيلها للزميل حسن العامري «ليلة الانفجار العظيم».. في تلك الليلة رأيتُ شخصية أخرى للشيخ بسيوني لم أرها من قبل.. لم يكن هو بسيوني الذي أعرفه: ذلك المتحفظ، المتردد، الذي لا يترك نفسه على سجيتها، ويتهيب من إظهار مشاعره بشكل واضح لكي لا تُحسب عليه.. «لعله المكان، ساحة الشعب، هي التي غيرت شخصيته، كما غيرت من قبل شخصيات العُمانيين»، هكذا علق حسن، وأخرج من درج مكتبه مقالًا تحليليًا جميلًا قال إن رئيس التحرير رفض نشره في الملحق الثقافي.. المقال عنوانه «تحريك الساكن وجدل المتغير» للكاتب ناصر صالح يرى فيه أنه «بقدر ما كانت الاعتصامات الشعبية التي شهدتها عُمان عام 2011 المواجهةَ الأولى بين المجتمع والسلطة منذ عقود، فقد كانت أيضًا، على المستوى السيكولوجي، المواجهة الأولى بين الفرد العماني ومخاوفه اللاشعورية من بطش السلطة، والمواجهة الأولى كذلك بين السلطة وعقدة خوفها وارتيابها المزمنة، منذ سبعينيات القرن الماضي، من أي تجمع واحتجاج شعبي. لقد كانت هذه المخاوف الكامنة في لاشعور الفرد والسلطة معًا هي المسرح الخلفي لأحداث فبراير 2011. لم يكن الذين خرجوا للاعتصام في الشوارع والميادين يواجهون السلطة بقدر ما كانوا يواجهون للمرة الأولى مخاوفهم المترسبة في قاع النفس والذاكرة منذ سبعينيات القرن الماضي. كما أن السلطة حين واجهت

الشباب العماني المحتج على سياستها إنما كانت تواجه لأول مرة مخاوفها وهواجسها الأمنية التي كانت أسيرة لها منذ حربها المسلحة مع «الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي»!.. كان الحدث يجري في فبراير 2011، ولكن المسرح النفسي للحدث ممتد إلى أربعين سنة ماضية؛ لذا كانت اللحظة محتدمة بالانفعالات المضطربة، الحائرة، المترددة. كانت الجماهير في الشوارع في مواجهة علنية صريحة مع مخاوفها من بطش السلطة وعقابها الشديد، أما السلطة فكانت هي الأخرى تنظر إلى الجموع الغاضبة في الشوارع بارتباك وخوف، وتصور لها مخاوفها احتمال الفوضى العارمة، وانفلات الأمن، وفقدان السيطرة والتحكم، وبالتالي ضرورة الردع والعقاب القاسي. كان الخوف من الجانبين سيد الموقف، لذا ذهبت الأمور إلى أقصاها في المواجهة الأولى في صحار، مما أدى إلى مقتل شاب عماني برصاص الشرطة، وعندها تفجر الغضب في صحار، وامتد إلى مسقط، وصلالة، وصور..كانت الجموع الغاضبة لمقتل الشاب العماني تطالب بالقصاص وعقاب المسؤولين عن مقتل الشاب، ومعها تتعالى عشرات المطالب بإقالة المسؤولين الذين اعتبروهم رموز الفساد والاستبداد!.. إنها لحظة المواجهة الأولى التي كسرت حاجز الخوف. كان العمانيون في الميادين بصدورهم العارية مستعدين لمواجهة القتل والاعتقال والسجن، إنها لحظة الانعتاق الأولى من الخوف، لحظة التحرر من الأسر، والانطلاق والحرية. إنها لحظة استعادة الشعور بالذات

الفردية كشخصية حرة، والوعي بالذات الجماعية كشعب عماني له إرادة وعزيمة وقدرة على التغيير. كان الفرد العماني يعلن ذاته لأول مرة: أنا أحتج، وأرفض، وأعترض إذًا أنا موجود. وكان الشعب ككيان معنوي وفيزيقي ينبثق ويتعين في الساحات والميادين كإرادة شعبية متضامنة تعلن وجودها لأول مرة: نحن نحتج، ونرفض، ونطالب، ونريد، إذًا نحن موجودون. إنها لحظة معنوية فاصلة. لحظة انبثاق الوعي الأول بالذات الفردية والجماعية. الأنا العمانية ولدت وتحققت في تلك اللحظة التاريخية، إنها ذات فاعلة لها إرادة حرة. كما أن الشعب العماني أخذ يتبلور كهوية وإرادة جامعة، وككيان معنوي جماعي له شخصيته الاعتبارية وحقوقه في المشاركة وصناعة القرار في وطنه.. لقد فوجئت السلطة بالجموع الغاضبة والمستنكرة. أربكتها الأصوات واللافتات الصريحة التي طالبت بإقالة القيادات الأمنية والمدنية البارزة في السلطة، ولم تعرف كيف تتعامل مع هذه اللحظة المنفلتة من العقال، كانت كل جهودها طوال الأربعين عامًا الماضية منصبة على تجنب هذه اللحظة الصدامية المتفجرة، لهذا كانت تعتقد أن كل تجمع شعبي أو رأي ناقد للسلطة يشكل خطرًا وتهديدًا للحكم، هكذا كانت المخاوف الأمنية تفاقم الإحساس بالخطر لدى السلطة من الشعب! ولكن السلطة اكتشفت أن مخاوفها وهواجسها الأمنية أضغاث أوهام. فهاهم العمانيون يتجمعون في الشوارع ويعتصمون في الميادين، ولكنهم لا يشكلون تهديدًا لنظام الحكم، بل يريدون تغيير وزراء

ومسؤولين في الحكومة، ويطالبون بإصلاحات اقتصادية وسياسية! كانت السلطة تتحرر من مخاوفها وتكتشف زيف أوهامها، فقد كان المحتجون يعبرون عن وحدتهم الوطنية، ويؤكدون مطالبهم المشتركة بسن وتطبيق القوانين العادلة، ومحاربة الفساد، وإصلاح المؤسسات، وترسيخ بناء الدولة.. لقد حررت الاعتصامات الفرد من مخاوفه كما أنها حررت السلطة من هواجسها وأوهامها الأمنية، وهو ما أدى إلى انفراج الحالة السياسية المحتقنة، لذا أصبح سهلًا على السلطة أن تتيح للمحتجين أن يبقوا في الشوارع والميادين ما داموا لا يهددون نظام الحكم، لذلك توقفت المواجهات العنيفة، وانتقل الصراع إلى محاولة إيجاد الحلول السياسية، والوصول إلى مخرج من الأزمة. ووجدت السلطة نفسها، بعد أن تحررت من مخاوفها الأمنية، أكثر قدرة على الاستجابة لمطالب المحتجين، وإجراء التغييرات السياسية، لذلك جاءت التعليمات واضحة وصريحة لأجهزة الأمن بعدم التعرض للمعتصمين، وصدرت القرارات بإقالة الوزراء والمسؤولين الذين طالب المعتصمون بإقالتهم، كما توالى صدور القرارات التي استجابت للكثير من المطالب التي أعلنها المعتصمون في الساحات العامة».. فكيف لا يتأثر بسيوني الذي عاش كل هذه السنين في عُمان بمناخ كهذا!!.. طوال رحلة عودتنا من ساحة الشعب متوجهين إلى بيته في الحمرية، وهو لم يكف عن الكلام:

ـ عارفة يا زينب.. أنا هنا في عُمان من خمسة وتلاتين سنة، عمري ما حسيت بالسعادة زي الليلادي.

ـ ربنا يسعدك يا شيخ.. أكيد لأنك حسيت أخيرًا أنك عُماني

ـ لأه.. لأني لأول مرة أتكلم على الزفت ده والناس تسقف لي..

ـ بس؟

ـ وكمان لأني حاسس دلوقت إني خارج من ميدان التحرير.. دلوقت بس أقدر أقول إني شاركت في ثورة 25 يناير، والزفت عبدالمجيد التونسي مش حيقدر يعايرني بعد كده ويقول لي بغل.

كانت السيارة تعتلي جسر العذيبة عندما قررتُ أن أستغل سعادته الليلة وأغامر بطرح السؤال الذي كنتُ أتحاشى طرحه في السابق لكي لا أغضبه:

ـ يا شيخ أريد أسألك سؤال ولكن أرجوك أوعدني ما تزعل.

ـ اسألي يا زينب.. انتي بالذات معزّتك كبيرة عندي..

صمتُّ قليلًا لأثير فضوله.. فعاجلني مرة أخرى:

ـ اسألي يا زينب.. أوعدك مش حزعل.. والله.

استجمعتُ رباطة جأشي وقلتُ:

ـ أنت ليش تكره جمال عبدالناصر كل هذا الكره يا شيخ؟

نظر إلي بهدوء.. وتنهد تنهيدة عميقة، وشرع يحكي.

- 11 -

بسيوني سلطان:
بالعصا على مؤخرته

اسمي محمد بسيوني محمد سلطان الفقي.. ولدتُ في محافظة المنوفية في قلب الدلتا عام 1936، في قرية يقال لها كمشيش.. قد يكون اسمها غريبًا عليك بعض الشيء ولكنها قرية مهمة.. لا أقول هذا تعصبًا لقريتي التي هي مسقط رأسي، بل لأنها حقًا مهمة لكونها تحتلّ موقعًا فريدًا ـ بين كفر المصيلحة، مسقط رأس المخلوع حسني مبارك، في الشمال؛ وميت أبو الكوم، مسقط رأس المقتول أنور السادات، في الجنوب الشرقي؛ ودنشواي التي كانت مسرحًا لانتفاضة ضد الاحتلال البريطاني في العام 1906 في الشرق.. كانت كمشيش خاضعة لسيطرة عائلتنا، عائلة الفقي. يكفي أن أقول لك يا زينب أنه في نهاية الأربعينيات، كانت عائلتنا بكل فروعها القريبة والبعيدة تمتلك زهاء 250 فدانًا، أي ما يعادل ثلثي أراضي القرية. كما كانت تسيطر على التعاونية الزراعية التي أُسِّست في العام 1936، ومن ثَمَّ على توزيع القروض والبذار والأسمدة على الفلاحين الصغار.. تستطيعين اعتبارنا ملوك كمشيش في تلك الفترة.. البلدية تحسب لنا ألف حساب، وعمال التراحيل يتمرغون في خيرنا... وكنا عن طريق التعاونية الزراعية وبمساعدة البلدية نخص أنفسنا بأعداد

كبيرة من هؤلاء العمال لفلاحة أراضينا، وكانت لنا امتيازات في مجال الريّ انتزعناها من البلدية بهيبتنا.

ولأن لكل نعمة حسادها كما في حكايات ألف ليلة وليلة فقد ابتلينا بعد ذلك بالانقلاب على الملكية الذي سُمّي زورًا وبهتانًا ثورة!!.. قسمًا عظمًا يا زينب لو أنه يتاح للمرء أن يمحو فقط يومًا واحدًا من عمره ويلغيه من الوجود لما اخترت أن أمحو إلا يوم 23 يوليو 1952.. تصوري أنه في 9 سبتمبر 1952، أي بعد أقلّ من شهرين على انقلاب من سموا أنفسهم الضباط الأحرار بقيادة الزفت الذي تعرفين، أصدر هؤلاء قانونًا يحدّ من حجم الملكيّات الزراعية، فكان ذلك بدايةً لما سمي بالإصلاح الزراعي لا أصلح الله لهم حالًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكانت تلك بداية المعاناة والذل والهوان الذي ستعيشه عائلتنا في كمشيش.. صحيح أننا في البداية تمكنا ـ على غرار كبار ملاك الأراضي في العديد من القرى الأخرى ـ من التفلّت من تلك الإجراءات، ولكن ظل هناك دائمًا من سلطه الله علينا لينازعنا في أملاكنا. تخيلي أنك تقعدين في بيتك في أمان الله وبجانبك ابنك علي ربنا يحرسه لشبابه وأمامكما صحن مكبوس لحم أو برياني دجاج وبينما أنتما على وشك البدء بتناول الوجبة يدخل عليكما فجأة شخص غريب أهبل ويحدد لك وابنك عدد اللقمات التي عليكما أن تأكلاها من الصحن!!.. لجأنا حتى العام 1961 إلى العديد من الخدع لنحمل هؤلاء الأوغاد على الاعتقاد بأنّ ملكيّتنا العقارية الخاصة لا

تتخطّى السقف الذي حددوه لنا، في حين كان كلّ منا يمتلك أكثر من الضعف رغمًا عن أنوفهم. لم تكن مشكلتنا مع هؤلاء الضباط فقط، فلا بد أنك سمعتِ عن المثل الذي يقول: إذا سقط الجمل كثرت سكاكينه.. خرج لنا فجأة - وبتأثير من الانقلاب الذي سمي ثورة - طلاّب شباب وفلاّحون من القرية بقصة عجيبة وهي أن عائلة الفقي اشترت منهم أراضي بأسعار مخفضة في الثلاثينيات زاعمين أننا استغللنا إفلاسهم في إثر الأزمة الاقتصادية آنذاك، وكأنهم كانوا نائمين عشرين سنة مثل أهل الكهف ثم استيقظوا فجأة، أو كأننا ضربناهم على أيديهم ليبيعونا أراضيهم!.. كان يحرض هؤلاء ويقودهم رجل اسمه صلاح حسين مقلد.. واندلعت بيننا وبينهم مواجهات عديدة تحولت خلال العام 1953 إلى مواجهات مسلّحة لا تزال محفورة في ذاكرة كمشيش.. وقد وُضِعَ صلاح حسين في الإقامة الجبرية في شبين الكوم، مركز المحافظة، في نهاية العام 1953، ثمّ سُجِنَ مدّة أكثر من عام بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين.. حاشا الإخوان طبعًا أن يكونوا مشاغبين ومثيري فتن ولكن الحكومة أعطته هذا الشرف لتبرر جرائمها في حق الإخوان.. لا بد أنك سمعتِ كذلك عن مسرحية المنشية التي قام ببطولتها بتمثيل رديء اليوزباشي عبدالناصر.. وعمومًا، الداهية الكبيرة حدثت في يوليو 1961، عندما أصدر عبد الناصر ما سمي بـ«المراسيم الاشتراكية» التي أدّت إلى مصادرة أملاك وأراضي أربعة آلاف عائلة في مصر كلها، يزيد مجموعها على 21 ألف

فدان.. وفي كمشيش، استلزم الأمر ستة أشهر لإحصاء جميع الأراضي المُتنازَع عليها، واللّجنة التي عُيّنت لهذه الغاية زعمتْ بأنّ المساحة التي تملكها عائلة الفقي تتخطى كثيرًا السقف الذي يحدّده القانون. فصُودرت أملاكها بالكامل وأُعيد توزيعها على مائتي فلاح صغير من القرية، كما وُضِعَ آل الفقي في الإقامة الجبرية في الإسكندرية. جدي سلطان باشا الفقي أصيب بجلطة دماغية أدت إلى شلله ما تبقى من حياته، وبعض أفراد عائلتنا البعيدين مات من الصدمة، والبعض ترك أملاكه وهاجر إلى السعودية، وتخيلي بعد هذا كله كانت الحكومة وإعلامها الفاجر يعتبران كمشيش مثالًا للسلام والعدالة التي استتبّت أخيرًا في الأرياف كما يزعمون، بفضل تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي!.

جدي سلطان أصيب بالجلطة لأنه وحده كان يملك 44 فدانًا صودرت جميعها وأعطيتْ إلى الفلاحين الذين تسمونهم أنتم في عُمان بالبيادير.. وكان يمتلك مصنع نسيج بناه بعصاميته وعرق جبينه حتى صار من المصانع الكبيرة في مصر، وذات يوم دخل بسيارته الفارهة ليتفقد المصنع فأُغلِقتْ الأبواب وراءه، وجاءه العساكر يطردونه من مصنعه بحجة أن الدولة أمّمتْه!.. بعد أخذ ورد وشد وجذب وَجَدَ جدي ألا فائدة من أي كلام مع هؤلاء العساكر الأوباش فركب سيارته مقررًا الخروج، فكان أن أنزلوه عنوة من السيارة لأنها أُمِّمَتْ هي الأخرى!!.. يسرقون مصنعه وسيارته عيني عينك ثم يأتون ليصدعوا رؤوسنا بالعدالة

الاجتماعية!.. ألا قاتلهم الله.. ومن مصادفات القدر التي تزيد المرء حزنًا على حزنه أن جدي مات في مايو من عام 1974، أي قبل شهر واحد فقط من التصويت الذي جرى في عهد أنور السادات على قانون يلغي الحراسة القانونيّة المرتبطة بـ«المراسيم الاشتراكية». وقد نصّ هذا القانون بكلّ بساطة على إعادة حوالى 25 ألف فدان إلى أصحابها أو التعويض عليهم بسخاء. ولكن لم تخلُ هذه العمليّة من الصدامات. فالفلاحون الذين يتمتّعون بعقود إيجار دائمة، لقاء مبلغ رسميّ ثابت ومتواضع جدًا، قد منعوا المالكين من إخراجهم. كان هذا لحسن الحظ في قرى مجاورة لكمشيش.. أما في كمشيش فقد توصّلت عائلتنا، عائلة الفقي، ليس إلى استعادة أراضيها المصادرة فقط، بل حتى المنزل العائلي الذي كان قد جرى فيه تأسيس مدرسة وعدد من المراكز الاجتماعية.. كان نصيب أبي محمد سلطان الفقي من ميراث جدي 22 فدانًا، كانت كافية لنعيش بكفاف منها ومن عائد العمارة التي في المهندسين.. لكن من يا تُرى سيعوض أبي عن جدي سلطان الذي مات مهمومًا مغمومًا يدعو على عبدالناصر في كل صلاة.. في تلك الأثناء كنتُ قد سافرتُ إلى عُمان مدرسًا للغة العربية في مدرسة عبدالرحمن بن عوف في صحم.. وكنتُ أوزع إجازات الصيف بين عمارتنا في المهندسين وأرضنا في كمشيش مستمتعًا بنسيمها العليل.. وذات صباح من ربيع عام 1980 كنت في الصف منهمكًا بمدّ أحد الطلبة العمانيين المشاغبين وضربه بالعصا على مؤخرته عندما

جاءني الخبر.. نعم، لا تستغربي، لم يكن الضرب ممنوعًا آنذاك ولذلك كان ذلك الجيل هو أفضل جيل من العمانيين أدبًا وأخلاقًا وتحصيلًا دراسيًا، لم يكن الطالب يجرؤ أن يضع عينه في عيني.. والله إني أبكي على تلك الأيام كلما سمعتُ أن تلميذًا تلفظ بكلام بذيء على مدرّسه اليوم.. العمانيون ولا مؤاخذة فقدوا أخلاقهم يا زينب ولكنهم يكابرون ولا يريدون أن يعترفوا.. شباب اليوم لم يعيشوا ضنك آبائهم ولذا هم قليلو أدب واحترام.. في تلك الأيام كانت الأخلاق عالية رغم أن الحياة صعبة. لا كهرباء، لا ثلاجات، ولا ماء، ولا تليفزيونات. والحشرات والعقارب تملأ المكان لدرجة أننا نحن المدرسين المصريين كنا نضع تحت أعمدة أسرّتنا في سكن المعلمين في صحم صفيحة حليب نيدو ونملأها بالماء جاعلين فوهتها مفتوحة لكي تسقط العقارب فيها فلا تصعد إلى الأسرّة!.. ومع ذلك كان الأولاد مؤدبين.. تعرفين لماذا كنت أضرب الولد؟!.. كان هذا من قبيلة المعمري، وكان زميله من قبيلة السعيدي.. المعمري قال للسعيدي: «انته قعو»، فرد عليه السعيدي: «وانته جزلة».. كان ذلك في الحصة الأولى ولم أفهم ولكني كتمتُها في نفسي، وعندما عدتُ إلى غرفة المعلمين سألتُ مدرسًا عُمانيًا اسمه راشد البريكي، فشرح لي أن هذه ما تُسمّى بـ«تغيورات» القبائل العمانية، أي إن لكل قبيلة كلمة إذا ما قيلت لأحد أفرادها فإنه يغضب غضبًا شديدًا لأن هذه الكلمة لها قصة أو ذكرى سيئة في تاريخ القبيلة.. فإذا أردتِ إغضاب الأستاذ حسن العامري مثلًا

فعليك أن تقولي له «كسرة» أي فتات الخبز، والشيخ داود الحراصي «حلوى محترقة»، ورئيس التحرير مرهون البطاشي «العرسية»، وزوجته زوينة الهنائي: «السوقمة».. والمصحح مبارك المقبالي: المخ.. والمخرج بدر الغداني: «ذيل البقرة».. وأنتِ يا زينب يا عجمي تغيورتك قرطاسة.. والمفارقة أن القبيلة التي لا تُعايَر بشيء لا تُعَدّ قبيلة محترمة!!.. طبعًا أكد لي زميلي البريكي الذي تغيورته بالمناسبة هي «الكِتّ» أن ذلك كان في الماضي، وأن الأمر لم يعد يتعدى الآن كونه تذكرًا لشيء طريف، ولكنني أصررتُ على معاقبة الطالبين على إثارة مثل هذه النعرات القبلية النائمة، فمددتُ السعيدي على مؤخرته، وبينما أنا أمد المعمري دخل علي الناظر وفي يده رسالة بريدية.. انتظرني إلى أن فرغت من تأديب الولد وسلمني الرسالة ووجهه يشي بأنه يعرف ماذا تحوي.. «احضر حالًا، أبوك تدحرج عن السلم وأعطاك عمره» كان هذا مختصر الرسالة.. لم تمض ثلاثة أيام حتى كنتُ في المهندسين حيث كنا قد انتقلنا للسكن في عمارتنا هناك، ولم نكن نذهب لتفقد أملاكنا في كمشيش إلا في فترات متباعدة.. ولأني الأخ الأكبر وبت في مقام الأب لأخوتي فقد كان عليَّ أن أمضي في إجراءات الميراث، وهنا كانت الطامة الكبرى.. تخيلي أنني لم أكد أقول للبيادير إنني جئت إلى كمشيش لأقتسم الميراث مع أخوتي حتى انبروا لي جميعهم وهم يقولون: «بارك الله لكم في الـ 11 فدان»، قلت: «وليه 11 فدان؟!.. أبونا الله يرحمه كان عنده 22 فدان»، وإلى

اليوم، بل إلى يوم تقوم الساعة، لن أنسى ابتسامة مخيمر الصفراء، ذلك الفلاح العبيط الذي أكرمناه وأخوته فعضوا اليد التي امتدت لهم: «حضرتك ما سمعتش عن حاجة اسمها قانون الإصلاح الزراعي؟»، إلى ذلك اليوم لم أكن سمعتُ بهذا القانون من قبل، وأما السرد الذي سردتُه لكِ قبل قليل عن القانون وعن عائلة الفقي وحسين مقلد فقد عرفتُه متأخرًا بأثر رجعي بعد هذه الحادثة.. قال مخيمر بابتسامته الصفراء الكريهة: «إحنا لينا نص الأرض، يعني حداشر فدان.. ولو عاوزهم ادفع تمنهم.. ولو مش مصدق حضرتك روح اسأل مصلحة الإصلاح الزراعي».. هؤلاء الفلاحون الأوباش نسوا أيادينا البيضاء عليهم.. وربنا المعبود يا زينب لم نكن نعاملهم كأجراء.. بل إننا نتركهم يفلحون الأرض ويأخذون نصف غلتها من كل محصول، باستثناء القطن فقط الذي كنا نعطيهم ربع غلته بسبب غلاء سعره.. المهم أنني ذهبت بالفعل إلى مصلحة الإصلاح الزراعي وقابلتُ موظفها، وكان رجلًا أنيقًا يرتدي قميصًا وبنطلونًا متناسقي الألوان.. وعندما سألتُه عن صحة ما يدعيه مخيمر رد على سؤالي بسؤال آخر:

ـ حضرتك مش ساكن هنا ولا أيه؟!

ـ لأ. مش ساكن هنا.

ـ أمال ساكن فين؟

ـ أصلي بشتغل في سلطنة عُمان من خمس سنين.

وبعد أن أكد لي صحة ادعاء البيادير قلتُ له بغضب:

- ازاي يعني دي تكون؟!.. أرضي اللي ورثتها عن أجدادي ياخدها الغُرب مني؟!، يا إما أدفع فيها دم قلبي؟!.. مش ده ظلم صريح؟!.. ترضى انته ييجي واحد يبيّعك بيتك اللي تملكه واللي دفعت فيه دم قلبك؟!

نظر إليَّ الموظف نظرة كسيرة، وقال لي عبارة لن أنساها ما حييت:

- بص يا أستاذ بسيوني.. أنا حكلمك بصراحة.. إحنا نظامنا شيووووووعي.

لم أكن طبعًا أملك المال الكافي لأشتري أرضي من الأغراب، ولذا فقد اضطررتُ إلى التنازل عن الفدادين الأحد عشر لهم.. وكلما أتذكر اليوم أن هذه الأرض تساوي الآن ملايين الجنيهات أشعر بنار تلظى في كبدي وأدعو على هذا العبدالناصر الذي شقلب حياتي رأسًا على عقب.. تخيلي حتى عمارة المهندسين التي بنيناها في نهاية الستينيات وكنتُ أعتبرها قرشي الأبيض الذي أدخره لليوم الأسود، حتى هذه العمارة لم تعد ذات فائدة لي بسبب قوانين هذا الزفت.. فإيجار شققها هو هو لم يتغير منذ أربعين سنة رغم غلاء الدنيا كلها!، تخيلي شقة راقية في المهندسين بها كل الخدمات من كهرباء وماء، بل وحتى الغاز موصل إليها، يكون إيجارها الشهري ما يعادل لديكم ستة ريالات!، وعندما أردتُ أن أخلي إحدى الشقق قبل عدة سنوات لأعطيها لجار النبي لتكون شقة الزوجية لم أستطع، فكأن قانون الإيجار سُنَّ نكاية بي، فليس من حقي

أن أطرد المستأجر، ولا أن أزيد عليه في الإيجار قرشًا واحدًا، وإذا ما أردتُ إخراجه بالتراضي فعليَّ أن أعوضه بمبلغ كبير ليرضى أن يترك لي شقتي التي هي في عمارتي!!.. أليس هذا ظلمًا كبيرًا؟!.. بصي يا زينب.. أنا لا يهمني ما يردده المخدوعون بهذا الرجل حتى وإن كان صحيحًا.. لا يهمني أن يكون عبدالناصر بطلًا عروبيًا أم لا، ولا يعني لي شيئًا أنه كان يضع رأسه برأس إسرائيل أو برأس أمريكا، ولا أن يتزعم حركة عدم الانحياز، ولا أن يمد نفوذ مصر إلى أفريقيا أو إلى آسيا. ولا أن يبني السد العالي أو يؤمم قناة السويس.. ولا يهمني أنه مات نظيف اليد وليس في حسابه إلا جنيهات معدودات.. كل هذا لا يهمني يا زينب.. ما يهمني هو أنني تعرضتُ لظلم كبير في حياتي بسبب هذا الرجل، وربما أشد من الظلم الذي تعرض له جدي سلطان. ظلم بذر في عمق روحي حزنًا عصيًا على الوصف، حزنًا يُحَسُّ فقط ولكن لا يُقال، لأنْ لا كلمات في الدنيا قادرة على الإحاطة بعمقه.. ضيق حاد في روحي يا زينب وحزن يشبه صوت من ينتحب وحيدًا في غرفة مظلمة.. ولذا فإني سأظل أكره هذا الرجل طول حياتي وإلى أن أموت.

ـ 12 ـ

المصحح التونسي:
البلد بش يبيعوها

أعرف ما ترمون إليه وأنا سأكون صريحًا معكم من البداية.. لم أحب بسيوني قط، وكانت بيننا معارك وخناقات، ولكن أقسم لكم أنني متألم جدًا لما أصابه.. أنا إنسان في النهاية وأتأثر بالمصائب التي تحيق بأعدائي قبل أصدقائي.. أواه يا بسيوني لو أنك تفيق ساعة فقط لأفتح صفحة جديدة معك وأقول لك: «سامحتُك فسامحني، وعفا الله عما سلف».. البارحة أقلقني عليه أكثر الشيخ داود الحراصي عندما قال إنه ما زال في غيبوبته السادر فيها منذ شهرين ونصف شهر.. قلتُ له: «لا أدري لماذا لا تتكفل الجريدة بعلاجه في الخارج إذا كان متعذرًا علاجه في عُمان»، قال الشيخ داود: «رئيس التحرير يقول إنه طرح هذا الأمر على أطبائه، ولكنهم أجمعوا أنه لا يمكن بحالته هذه تحمل السفر إلى أي مكان، علاوة على أنه لا شيء يمكن أن يقدم لعلاجه في الخارج أكثر مما يقدمه له المستشفى السلطاني».. رئيس التحرير هذا دجال كبير، يأكلك لحمًا ويرميك عظمًا.. لماذا سيهتم ببسيوني أو بغيره إذا كان اهتمامه منصبًا فقط على ما بين فخذيه!.. أستطيع أن أختصره لكم وأنا الخبير في اللغة في ثلاث كلمات

مشتقة من فعل واحد: نَصْب، ومنصب، وانتصاب.. لا أدري ماذا يفعل بكل هذه المقويات التي يأخذها مني بشكل شبه يومي.. عندما فاتحتُ صديقي سالم الخنصوري بهذا الأمر قال لي إنه نما إلى علمه أن تلك المقويات الجنسية لا تذهب إلى الأستاذ مرهون فقط، بل يوزع كثيرًا منها على عدد من المسؤولين الأعلى منه كقرابين للوصول إلى مبتغاه.. تذكرتُ واسترجعتُ قوله لي مرة في مكتبه: «يا أخي هلكتنا بذا العسل والمكسرات والمرقادوش كل يوم.. ما عندك وصفة ثانية؟!»، قلت: «كيفاش؟.. خذ قطعة من سنام الجمل وخليها دهان، واشويها على الفحم مع الحمص والبصل»، يومها لم أنتبه وأنا المصحح اللغوي لقوله «هلكتنا» بصيغة الجمع وليس «هلكتني»!.. ليس هذا فحسب بل إنه يستمتع بقصص الجنس والجماع، ومستعد مثلًا أن يترك انهماكه في كتابة افتتاحية الجريدة في مقابل أن أسرد له حكاية الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي كتب ابن مسكويه في «تجارب الأمم» أنه كانت لديه 4000 جارية «وطئهن» كلهن!!.. ولكن ما لم أجرؤ على قوله للأستاذ مرهون أن هذا المتوكل «اتكل على الله» وهو لما يتجاوز الأربعين إلا بقليل، تمامًا كعمر الأستاذ مرهون البطاشي الآن.. وذات يوم استدعاني إلى مكتبه بشكل عاجل، وطوال طريقي من قسم التصحيح إلى مكتبه وأنا حالي كما نقول في تونس: «مرض القلق، لا حمى لا عرق»، لدرجة أنني شككتُ أن ثمة وشاية جديدة بي من قبل بسيوني سلطان، فإذا بي أكتشف أنه يريد مني كتابًا

مهمًا يقول إنه بحث عنه في عُمان ولم يجده وإن عليّ أن أحضره له من تونس في إجازتي المقبلة.. عندما أخبرتُ الخنصوري بعنوان الكتاب ضحك كما لم يضحك من قبل: «الروض العاطر في نزهة الخاطر» للشيخ النفزاوي.. أحب سالمًا هذا، وأعتبره أقرب أصدقائي في هذه الجريدة، ولكنني أعترف أن هذه الصداقة ما كانت لتتوطد لولا بسيوني، من باب أن عدو عدوّي هو صديقي لا محالة.. كان سالم ينصرني على بسيوني، وكنتُ أفعل الأمر ذاته حين يتعرض له بسيوني بلسانه السليط.. لا أنسى ذلك اليوم الذي جلس فيه سالم وحيدًا في صالة التحرير متأثرًا ويكاد يبكي.. كان ذلك أمرًا غريبًا بالنسبة إلي، فصورة الخنصوري المترسخة لديَّ ولدى معظم موظفي الجريدة أنه ذلك الفتى المرح كثير المقالب للزملاء، الذي يحول أي مكان يحل فيه إلى طاقة هائلة من الضحك.. سألتُه: «شْبِيك سالم؟».. قال: «أنا عادي يا عبدالمجيد: يشتمني، يضربني، ويقتلني حتى.. لكن أبوي أيش ذنبه؟!». كان بسيوني قد نعته بالكلب ابن الكلب في آخر سَوْرة غضب انتابته بسبب جمال عبدالناصر.. قلتُ له: «الله غالب.. ولا يهمك.. أني بعون الله بش نتقمولك ولبوك».. وطفقنا نرتب له سلسلة «محترمة» من المقالب لعل أشهرها «مقلب الحلول»!.. كلما تذكرتُ هذا المقلب الآن ومقالب وملاسنات وشجارات أخرى يخالجني شعور بالندم.. لم أكن أحب بسيوني ولا أطيقه، ولكني يشهد الله، وحق الماء والملح الذي بيننا، أني لم أتمنَّ له هذه الرقدة الطويلة بين

الحياة والموت وكأنه المجرم الصهيوني شارون! . أشعر صادقًا الآن أنني لا أريد أن أفقده.. في إجازتي الأخيرة في تونس سرد خطيب الجمعة مرة حكاية النبي محمد عليه الصلاة والسلام واليهودي الذي كان لا يتورع بشكل يومي عن رمي الشوك والقاذورات أمام بيته، وكان النبي يزيح هذه القاذورات بصبر بدون أن يتأفف، إلى أن جاء يوم فلم يجد هذه القاذورات فعرف أن اليهودي مريض فقام بعيادته.. حالي وبسيوني يشبه هذه الحكاية إلى حد ما.. لقد تأقلمت مع كل فظاظاته لدرجة أنني لا أتخيل جريدة المساء بدونه.. صحيح أنني كنتُ لا أسكتُ على قاذوراته، ولكن هذا لأنني لستُ نبيًا.. ولكن صدقوني أنا الآن أفتقده.. وحتى عندما انتُدِبتُ للعمل في صلالة لثلاثة أشهر، شعرتُ ـ رغم الهدوء التام هناك ـ بأن شيئًا ما ينقصني.. ظللتُ لفترة ليست بالقصيرة أظن أن بسيوني سلطان هو سبب هذا الانتداب في عز انهماكي بمتابعة الثورة التونسية، ولكن بعد عودتي إلى مقر الجريدة الرئيس في مسقط عرفتُ من سالم أن بسيوني بريء من هذه التهمة، وأن الانتداب كان قرارًا مستقلًا من الأستاذ مرهون البطاشي ليبعدني عن صالة التحرير في تلك الفترة، لأنني كنتُ متفاعلًا ومنفعلًا بالثورة التونسية أولًا بأول.. وكان الزملاء المحررون والمصححون العمانيون يلتفون حولي وأنا أحكي لهم وأحلل وأطلب منهم الدعاء للثورة بالنجاح، ولعل هذا ما أقلق رئيس التحرير.. يقول الخنصوري إن السبب المباشر لإبعادي عن الجريدة هو إضراب صفاقس..

فقد كنتُ سعيدًا يومها وقلتُ للزملاء إن نهاية بن علي قريبة لا محالة.. سألني مبارك المقبالي: «ليش؟»، فسردتُ له وللزملاء أن صفاقس لدينا في تونس مشهورة بحب أبنائها الشديد للعمل، إنها مثل الصين الشعبية، الكل يعمل فيها بلا كلال أو ملل، ولا يفرحون بالإجازات كما يفرح بها بقية أبناء المناطق الأخرى.. وعندما تضرب صفاقس كلها عن العمل وتخرج عن بكرة أبيها للتظاهر ضد بن علي فإن هذا يمثل حدثًا تاريخيًا مهمًّا يوحي باقتراب نهاية نظام زين العابدين وسقوطه.

وسقط النظام والحمد لله وهرب بن علي، واستبشرنا خيرًا بما سنجنيه بعد الثورة، ولكن البغل تبدل و«الكريطة» هي هي، وانطبق علينا المثل التونسي «لعزوزة هازها الواد وهي تقول العام طهمة».. لم يكن العام «طهمة» ولا يحزنون، وإني لأتساءل بمرارة اليوم: هل كانت هذه ثورة حقًا؟!.. ما الفرق بينها وبين الانتفاضة إذا كان أزلام النظام ما زالوا يتحكمون في مفاصل الدولة بحماية ورعاية حزب النهضة الذي خدعنا بشعار «لا تخافوا من يخاف الله» فصدقنا ولم نخف، وها نحن نكتشف اليوم أن بن علي الطاغية المستبد يخاف الله أكثر منهم!.. «كنت بالهم القديم راضي، جاني الجديد زاد أمراضي».. مشكلتنا مع النظام السابق كانت في حرية التعبير والإعلام فقط، ولكن كان هناك أمان نسبي، ولم تكن الأبنية العشوائية منتشرة على الشوارع كما هي الحال الآن، وكانت الوظائف والمناصب تذهب حسب الكفاءة لا حسب الولاء.. أما اليوم فحكومة

النهضة صارت توظّف إما أقرباء قادة الحزب، وإما المشهورين بالفساد في النظام السابق ليسهل عليها التحكم فيهم: إما أن تنفذوا أجندة الحزب وإلا أخرجنا لكم من القمقم ملفاتكم السوداء.. البلد بش يبيعوها.. المستشارون الشرفاء يستقيلون، وتونس «تتوهبن».. وهناك شباب كنتُ أعرفهم قبل الثورة ونسميهم «زابراتا» صاروا اليوم يطيلون لحاهم ويوزعون الجلابيب على الناس، وأحيانًا يتحرشون بالنساء في حماية الشرطة التي قد تتعرض لفقير يبيع بضائع صينية مقلدة في الشارع، ولكنها لا تقترب ممن يعتدي على الناس نهارًا جهارًا باسم الدين، «وإذا كان خصيمكْ القاضي لاشكون بشْ تشكي» على رأي ابنة خالتي هاجر التي تعمل في التلفزة التونسية وتقول إنها كانت تغطي تظاهرة تضامن مع الثورة السورية أمام أحد جوامع العاصمة عندما اقترب منها أحد هؤلاء ووبخها على عدم ارتداء غطاء الرأس ثم قال: «انتو قناة كافرة»، ولولا نشطاء من «حزب التحرير» انبروا للدفاع عنها لحدث لها ما لا تحمد عقباه.. وطبعًا حزب النهضة سيدعي أن هؤلاء محسوبون على السلفيين لا على الحزب، وكأننا أغبياء ولا نستطيع أن نفهم أنه يتخذهم كمخلب قط وذراع خفية لتنفيذ سياساته، محاولًا ترويض وسائل الإعلام لتكون ناطقة باسمه مسبحة بحمده.. قال لي سالم الخنصوري منذ يومين بعد أن رفض رئيس التحرير نشر مقال له عن قضية التجمهر: «كم أحسدكم في تونس على حرية التعبير والإعلام الكبيرة التي ظفرتم بها بعد الثورة»، قلتُ له بحسرة: «إنها كبيرة حقًا..

كبيرة حد الفوضى.. نحن نقول في تونس: إلّي والفْ بالحْفى، ينسى صبّاطو.. إعلامنا تعود على المشي حافي القدمين لدرجة أنه نسي حذاءه.. ما أسهل أن تخرج الآن أي وسيلة إعلامية فتشتم هذا السياسي أو تجرّح في ذاك.. أبدًا ليست هذه الحرية التي كنا نحلم بها».. قال سالم: «إذن كلنا في الهمّ إعلام يا عبدالمجيد.. الفرق أن إعلامنا يترك السياسيين الفاسدين ويشهّر فقط بالمواطنين».. كان الخنصوري يتحدث عن الحدث الطازج أخيرًا عندما نشرتْ وكالة الأنباء العُمانية وبعض الصحف صور المدانين في قضايا «الاعابة» والتجمهر وإعاقة الطريق ومخالفة قانون تقنية المعلومات، بأسمائهم الثلاثية وقبائلهم وتواريخ ميلادهم وأماكن عملهم، وبعضهم كانت صورته وهو في حالة زرية في ملابس الاحتجاز، في سابقة يقول سالم إنها لم تحدث من قبل حتى مع المجرمين ومهربي المخدرات، أدى ذلك إلى إدانة واسعة من المجتمع ومن المثقفين الذين قرروا مقاطعة الوكالة والصحف التي نشرت الصور، ومنها «المساء».. رئيس القسم الثقافي مستاء أيضًا لأن ملحقه الثقافي سيتأثر بهذه المقاطعة، خصوصًا وأنه حاول جاهدًا أن يثني رئيس التحرير عن النشر بلا فائدة.. أدت هذه الحادثة أيضًا إلى استقالة رئيسة القسم الاقتصادي من الجريدة بعد أن دخلت في مشادة كلامية عنيفة ـ كنتُ أحد شهودها ـ مع الأستاذ مرهون في يوم النشر نفسه:

ـ أنت تعرف أن ابني علي مش مجرم ولا قاطع طريق علشان تنشر صورته بهذا الشكل المهين.

- يا زينب.. افهميني.. أنا أول واحد مستاء من نشر هذي الصور.. لكن أيش أسوّي.. مكره أخاك لا بطل.. مجبور.

- وأيش اللي جابرنك تشهّر بأهلك وناسك؟!

- كذا جات الأوامر.. ومثل ما شفتي معظم الجرايد نشرت الصور.. لو رفضت صحيفة «المساء» كانت بتصير مثل الثور اللي يناطح جبل.

- ومبادئك الصحفية، وأخلاق المهنة وين راحت؟

- يا أم علي افهميني أرجوك.. انتي رئيسة القسم الاقتصادي وتعرفين زين أن أي جريدة بدون فلوس وإعلانات لا يمكن تستمر.. لو امتنعنا عن النشر كنا بنخسر من جهتين: أولا بنخسر الدعم الحكومي السنوي، وثانيًا نخسر المعلنين اللي معظمهم مؤسسات حكومية.. كان لازم أتخذ هذا القرار الصعب وأنا في قمة الحزن على شان أحافظ على الجريدة اللي فاتحة بيوت ناس كثيرين أعتبرهم أهلي وناسي وبعد.

- وعلشان تحافظ على فرصك في المنصب اللي وعدوك بيه.. ما كذا؟

أُسقِط في يد الأستاذ مرهون الذي لم يتوقع أن السيدة زينب العجمي تعرف بهذا الأمر.. فتلعثم ولم يحر جوابًا.. فعاجلتْه:

- وأنا ما يشرفني أعمل في جريدة ما عندها مبادئ صحفية ولا أخلاق مهنية.. اعتبرني من هاللحظة مستقيلة.

لم أرَ زينب العجمي غاضبة قبل هذا اليوم إلا مرة واحدة فقط، عندما عرض عليها بسيوني سلطان زواج المتعة.. لو لم يكن بسيوني في غيبوبته لحاول أن يثنيها عن قرارها واجِدًا ألف مبرر ومبرر للأستاذ مرهون الذي يدافع عنه دائمًا ويعتبره أفضل رئيس تحرير في عُمان.. «آه.. صدقني.. أنا هنا من أكتر من تلاتين سنة، ولما كنت مدرس كنت يوميًا بشتري الجرايد وبعلقهم في لوحة الإعلانات في المدرسة.. ولما انتقلت المعهد حافظت على العادة دي اللي سمحت لي أكون على اطلاع على الصحافة العُمانية.. عمري ما شفتش رئيس تحرير مهني زي الأستاذ مرهون، ولا عمري قريت مقالات عاقلة وموزونة زي مقالاته.. طب أنا حقول لك حاجة.. زمان من ييجي عشرة خمستاشر سنة، كان فيه رئيس تحرير مشهور في عُمان كلها بأنه منافق ومطبّل.. كان بيدبج مقالاته في الصفحة الأولى على طريقة «ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار / فاحكم فأنتَ الواحد القهار»، مرة السلطان كان يعمل جولة في ولاية مش فاكرها دلوقت ونزلت فيها شوية مطرة قام رئيس التحرير الفِتِك ده كتب إن السماء بترحب بالسلطان!.. أستغفر الله العظيم يا رب.. ومرة صلى السلطان العيد في نزوى قام كتب إن صلاة السلطان أهم من مقابر الأئمة في الولاية.. ومرة كتب أن العمانيين قبل النهضة كانوا «حُصّين» يعني مش نضيفين، وان سكان روي ما بيعرفوش حاجة خالص غير زراعة الفجل».. أذكر يومها أنني حكيتُ لبسيوني الذي لم تسُؤْ علاقتي به بعدُ عن شيء مشابه حدث

في تونس، لم أقف عليه شخصيًا ولكني سمعتُه من بعض الأصدقاء، وحتى هذه اللحظة لا أدري هل هي واقعة حقيقية أم مجرد نكتة سياسية: عندما عاد زين العابدين من الحج كتبتْ إحدى الصحف في الصفحة الأولى وبالبنط العريض: «حج مبرور، وسعي مشكور، وذنب مغفور»، وقبل أن تذهب الجريدة إلى المطبعة جاء الرقيب الذي كان يراقب الصحف مسبقًا فقرر حذف الجملة الثالثة «وذنب مغفور»، علق بسيوني: «عفارم عليه.. ده باين عليه رقيب بيخاف ربنا، عشان ما رضيش يجزم بأن ذنب الريس مغفور».. أذكر يومها أنني ضحكت من سذاجة بسيوني وقلتُ له: «يا بسيوني.. الرقيب حذف العبارة لأنه يعتقد أن زين العابدين لا ذنب له أصلًا لكي يغفره الله»!!.

- 13 -
عضو اللجنة الوطنية
لحقوق الإنسان: يخيط فمه؟!..
هل نحن في شيكاغو؟!

نعم.. سعيتُ لبسيوني سلطان للحصول على الجنسية العُمانية، ولكن هذا قبل أن يعتدي بالضرب على ابني سليمان.. لجأ إليَّ بصفتي عضوًا في اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان عندما علم ذلك مصادفةً من زوجي مرهون.. قال إن طلبه لم يتم الرد عليه منذ سنوات.. «تصوري يا باش مهندسة، فيه هنود قدموا طلباتهم بعدي ودلوقتي بقوا بيتغندروا بالدشداشة والمصرّ، ويا دنيا اتهدي ما عليكي قدي!!، وأنا العربي اللي قضيت نص عمري هنا ودرست أولادكم وربيتهم على الأخلاق والأدب والاحترام محدش عبرني، ولا حتى بالرفض».. عرفتُ وأنا أتقصى الموضوع أن طلبه مرفوض لأسباب أمنية، لكونه عضوًا سابقًا في جماعة الإخوان المسلمين، ولكن زوجي مرهون نصحني ألا أخبره بذلك، وأن أكتفي بإخباره أن موضوعه قيد الدراسة.. وبعد واقعة ضربه لسليمان نسيت الموضوع تمامًا وانقطعت علاقتي به.. الطريف أنني أنا التي جلبتُه لسليمان.. لم أطلبه بالاسم.. كل ما في الأمر أنني طلبت من زوجي أن يُحضِرَ مدرسًا خصوصيًا في اللغة العربية لابننا لأن لغته ضعيفة جدًا، تخيلوا أنه في الصف السابع ويكتب اسمه الثلاثي هكذا: سلميان بن مهرون

الباطشي!!.. لا أعرف من هو المسؤول عن هذا التدهور المريع لمخرجات التعليم في السلطنة!.. مرهون أتى ببسيوني هذا على اعتبار أنه أفضل مدققي اللغة لديه في الجريدة.. كان رجلًا عابسًا وقليل الكلام ويعطيك لأول وهلة انطباعًا غير مريح.. مرة طلب من سليمان أن يشرب شايًا بالزنجبيل.. لم تكن مديرة المنزل موجودة يومها فقمتُ بإعداد الشاي بنفسي.. بالمناسبة أنا التي أصررتُ أن نسميها «مديرة المنزل» وليس «الشغالة» أو «الخادمة»، لأن هذين الاسمين الأخيرين لا يليقان ببيت عضو في اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان.. أقول إنني قمتُ بإعداد الشاي بنفسي.. الشاي نفسه الذي يحبه مرهون ويستمتع به.. ويحبه سليمان ويستمتع به، ويطلبه أبي خصيصًا عندما يزورنا أحيانًا، لكن بسيوني لم يكمل الكأس!.. لم يعجبه الشاي.. إنه رجل لا يستمتع بحياته، هذا هو الانطباع الأولي.. أو لعله يريد أن يستمتع بحياته ولكنه لا يعرف، لا يعرف كيف يحرك عضلات شفتيه ليبتسم، لا يعرف كيف يتذوق طعم الزنجبيل في الشاي فيدعي أنه غير موجود!، لا يرى في منظر الغروب إلا انتهاء يوم آخر من حياته.. شخص غير مريح..

تأكد هذا الانطباع بعد اعتدائه بالضرب على سليمان، ابني فلذة كبدي الذي لا أنا ولا أبوه مددنا عليه أيادينا في يوم من الأيام، يأتي هذا الصعلوك الذي يلقبونه في الجريدة «خيط المرحاض» فيضربه!!.. بالله العزيز لولا رفض مرهون بإصرار لكنتُ رفعتُ ملفه إلى زملائي في اللجنة ليؤدبوه..

قال مرهون إن هذا الأمر قد يضر بفرصه في المنصب الذي ينتظره.. المفارقة أن مرهون ظل ينتظر المرسوم لسنوات وعندما وصل هذا المرسوم إلى بيتنا أخطأ أبا سليمان وأصابني أنا التي لم تكن تنتظره أو تتوقعه، وها أنا اليوم أتحول من مجرد رئيسة لجمعية المرأة العمانية إلى عضو مؤسِّس في اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان.. لا تعرفون مدى سعادتي بهذا التكريم السامي من لدن جلالة السلطان المعظم الذي جعل لحياتي معنى وجعلني محط أنظار الجميع: اليوم أنا مثال للمرأة العُمانية الناجحة.. وتنهال عليَّ الطلبات لتقديم محاضرات عن حقوق الإنسان، تارة في المدارس، وتارة في الجامعة، وتارة في جمعية المرأة العُمانية، وبت ضيفة دائمة في الإذاعة والتليفزيون كنموذج للمرأة العصامية الناجحة.. وكنتُ إحدى النساء اللواتي تشرفن بمقابلة جلالة السلطان في سيح المكارم عام 2009، حيث صار هذا اليوم يومًا عمانيًا للمرأة تحتفل به النساء كل عام.. هذه النجاحات تعوض الإنسان بعض الإخفاقات الأخرى في الحياة.. الحياة لا يمكن أن تعطينا كل شيء.. قد أصدمكم الآن إذا أخبرتكم أنني أعرف أن زوجي يخونني منذ سنوات ولكني أغمض عيني وكأني لا أعرف شيئًا.. «من خدعكَ فانخدعتَ له فقد خدعتَه» لم أعد أذكر في أي مسلسل تليفزيوني سمعتُ هذه العبارة، ولكن ما أعرفه حقًا أن مرهون المسكين يظن أنه يخدعني ولا يعرف أنه يخدع نفسه هذا الدون جوان العربيد.. ما تزوجتُه أصلًا إلا رضوخًا لرغبة الأهل بعد أن فقدتُ الأمل في

الزواج بسيف.. عندما تفقد الفتاة وهي في مقتبل عمرها من تحب يصبح للحياة لون واحد لا غير: الأسود، ولا يعود يهمها بعد ذلك أنها ستتزوج هذا الرجل أو ذاك، هذا الفتى الوسيم الغني، أو ذاك العجوز البخيل المريض.. بعد سيف لا يمكن لرجل أن يملأ عيني.. تزاملنا خمس سنوات في كلية الهندسة، ودخلنا التخصص نفسه.. أهلي استغربوا جميعًا عندما فضلتُ الدخول في هندسة البترول بدلًا من الهندسة المعمارية ولا يعرفون أنني قررتُ ذلك لأكون بالقرب من سيف.. لم نحلم بأكثر مما يحلم به شاب وفتاة في مقتبل العمر: بيت صغير حتى ولو بطابق واحد، وطفل أو طفلان يملآن علينا البيت، ووظيفة محترمة تجعلنا لا نحتاج إلى أحد.. عندما أستعيد الآن أيام الدراسة أجد أنها أسعد أيام حياتي، رغم أنني لم أكن معروفة كما أنا اليوم.. مجرد أن أمشي مع سيف في ردهات كلية الهندسة، أو نقعد لنتناول إفطارنا الصباحي في كافتيريا الكلية كان يعني أنني امتلكتُ الدنيا بحذافيرها.. كان جميع الزملاء يحترمون علاقتنا ويتعاملون معنا كمخلوقين خلق الواحد منهما للآخر، فلا فتى منهم يجرؤ أن يعاكسني لأنه يعرف أن قلبي مع سيف، ولا فتاة تجرؤ على الاقتراب من سيف لأنها تعرف أنه محجوز لزوينة الهنائي.. ومضت الأيام والشهور والسنون وتخرجنا كلانا بتقدير ممتاز، إلى أن جاء اليوم الذي شقلب حياتينا ورمى بكل منا في طريق.. بمجرد أن سمع أبي بطلب والد سيف قال له: «نشاور البنية وبيجيك الرد»، سيف سَعِد كثيرًا بهذا الوعد من أبي.. فأن يكون

رده مرتبطًا بمشورتي فهذا يعني الموافقة الأكيدة.. ثم فوجئت بعد ذلك من سيف نفسه أن أبي رد على أبيه بأنه «ماشي نصيب»!.. عندما سألتُ عن السبب عرفتُ أن سيف ووالده «بياسر»، ولا يليق بعائلة الشيخ حمد الهنائي أن تصاهرهم.. آخر رسالة من سيف كانت بعد شهر من هذا الرفض: «سنضعهم أمام الأمر الواقع.. سأنتظرك أمام بوابة المحكمة يوم الاثنين وسيكون معي شاهدان.. إذا لم تأتي سأعرف أنك لا تريدينني».. بالله العزيز أنا أريده ولكن لا يمكن لابنة الشيخ حمد الهنائي أن تفعل ذلك.. أنا ابنة قبيلة محترمة ولا ترضى على نفسها أن تتزوج بهذه الطريقة.. عرفتُ بعد ذلك أن سيفًا ترك عمله في شركة الـ PDO وانتقل إلى شركة هولندية في قطر.. خلال سنتين بعد ذلك رفضتُ ثلاثة عرسان وفي كل مرة كانت أمي تقول: «أخاف أموت وأنا ما مطّمنة عليش».. وعندما علمتُ أن أمي مصابة بالسرطان لم أستطع أن أرفض العريس الرابع.. خفتُ أن تموت فعلًا فأندم على عدم تحقيق رغبتها.. هذا الرابع هو مرهون البطاشي الذي أدركتُ لاحقًا أنه لم يتزوجني حبًا بيَّ بل تقربًا لوالدي الشيخ الذي له نفوذ في الدولة وإن لم يكن له منصب كبير.. كان يتهمني بالبرود ولعل هذا الذي جعله يبحث عن الحرارة خارج البيت مع تلك العاهرة الحقيرة.. قد تستغربون كيف كشفتُ خيانته لي.. إنه حدس الأنثى.. خذوها مني حكمة: لا يمكن لرجل أن يبيت مع زوجته وفؤاده معلق بامرأة أخرى دون أن تشعر زوجته بذلك.. بعد

ولادة سليمان لم أسمع منه كلمة غزل واحدة فتعودتُ ذلك.. ثم إذا به قبل أربع سنوات يغدق عليَّ بفيض غزله: «أحبك يا الغالية»، «انتي الغالية على قلبي»، «يا غاليتي»، فكان أن شككتُ في هذه الرقة المفاجئة فأرسلتُ وراءه من يتتبع خطواته ويأتيني بالخبر اليقين.. فعرفتُ ـ ويا للسخرية ـ أنه متزوج تلك العاهرة التي اسمها الغالية.. بعد تفكير عميق قررتُ أن أحكّم العقل والمنطق: أنا ابنة شيخ وامرأة مرموقة في المجتمع وإذا ما حملتُ لقب «مطلقة» في هذه المرحلة المهمة من حياتي فإن ذلك سيؤثر في وضعي الاجتماعي، بل حتى في وضع أبي.. ثم إن المرأة العاقلة هي التي لا تستسلم بسهولة وتسمح لامرأة أخرى بخطف زوجها منها، مرهون ملكي، وأنا الذي صنعتُ منه رجلًا مرموقًا في المجتمع ولا يمكن أن أتنازل عنه بسهولة، تزوجني وهو مجرد صويحفي صغير لا قلم له ولا «لاب توب»، وها هو اليوم رئيس تحرير الجريدة الأكثر شعبية في عُمان، ومرشح لأن يكون وزير الإعلام.. كلا.. لن أترك لأي من أعدائي فرصة الشماتة بي.. أما مرهون فأنا أعرف كيف أعاقبه العقاب الذي يؤثر فيه أكثر من طلبي الطلاق.. استغللتُ وساوسه فبدأتُ ألمح له أنني لستُ بتلك المرأة الغبية التي يظن.. مرة سألتُه عن أحد الوزراء الذين أبدى استغرابه أمامي من أنه خرج أخيرًا من الحكومة بعد أن كان أحد أعمدتها لسنوات طويلة ولم نتخيل يومًا أن يخرج منها.. قلتُ له: «هل تعرف لماذا خرج؟».. قال: «المعتصمون طالبوا بإقالته»، قلتُ: «ولكن المعتصمين

طالبوا بإقالة آخرين ولم تتم إقالتهم.. هناك سبب آخر أهم».. سأل باهتمام: «ما هو؟».. قلتُ: «الحقيقة أن هذا الوزير أقيل من منصبه لأن الجهات الأمنية اكتشفت أنه يخون زوجته!!»، أذكر يومها أنه ازدرد ريقه ولم يعلق.. وهكذا ظللتُ بين الفينة والأخرى ألعب بأعصابه، فلا هو قادر على أن يعترف لي بخيانته، ولا هو متيقن أنني قد كشفته.. أظن هذه إستراتيجية جيدة.. فليست زوينة ابنة الشيخ حمد الهنائي التي تترك زوجها للعاهرات لتشمّت بها الأعداء.. لستُ ناقصةً شماتات.. يكفيني الذين شمتوا بلجنتنا الوطنية عندما قدّمتْ زميلتنا منى الحمراشدي استقالتها من اللجنة.. من تظن نفسها هذه الحمقاء لكي ترفس النعمة.. من كان يعرفها أصلًا لولا اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان؟!.. ثم ما هو الجرم الذي ارتكبته اللجنة لتستقيل منها؟!.. هل هي جريمة نكراء أن تندد اللجنة بهؤلاء المراهقين قليلي التربية الذين يسيئون إلى وطنهم وسلطانهم بهذه الكتابات المسيئة في الفيس بوك التي لا يرضاها شرع ولا دين ولا قانون!!.. السلطان خط أحمر، ونحن لا نرضى أن يسيء إليه أي أحد.. وليس صحيحًا ما ادعتْه بأننا لم نفعل شيئًا لحماية حقوق الإنسان في هذا البلد.. ماذا تسمي الندوات والمحاضرات التي ننظمها بين الفينة والأخرى؟!.. ماذا تسمي مشاركاتنا الفاعلة في البرامج الإذاعية والتليفزيونية وفي الصحف؟.. ماذا تسمي المهرجان الضخم الذي نقيمه في العاشر من ديسمبر من كل عام احتفالًا باليوم العالمي لحقوق الإنسان؟.. ماذا تسمي

الدورات وحلقات العمل التي ننظمها للشباب داخل السلطنة وخارجها لتوعيتهم بأهمية حقوق الإنسان وآخرها دورة جنيف؟!!.. ليس هذا فحسب بل إن وفدًا من اللجنة كان حاضرًا دائمًا في الصفوف الأولى في قاعات المحاكم التي يتم خلالها محاكمة المخربين.. ثم تأتي وتقول إن اللجنة مسيسة!!.. إنها متأثرة بدعايات هؤلاء الذين يسمون أنفسهم «ناشطين»، هؤلاء المرتهنين للغرب يقلدونهم تقليدًا أعمى دون حتى أن يُعمِلوا عقولهم في العواقب، ألا يعلمون أن لعُمان خصوصيتها التي تختلف عن غيرها من البلدان؟!.. منذ متى كان العماني يتظاهر أو يضرب عن الطعام؟!!.. بالله العزيز إنني عندما علمتُ في اجتماع اللجنة أن أحد المسجونين خاط فمه احتجاجًا لم أصدق!!.. يخيط فمه؟!!.. هل نحن في شيكاغو؟!.. هل هذا هو ما يأمرنا به ديننا الحنيف، وأخلاقنا القبلية؟!.. أن نعبر عن الاحتجاج بتشويه خلقتنا؟!.. ومع هذا كان مندوب اللجنة أحد الذين ساهموا في إقناع هذا السجين بحل الخيوط عن فمه وإنهاء إضرابه عن الطعام والكلام.. ماذا تريد منا منى الحمراشدي أكثر من ذلك؟!.. أن نتدخل في عمل «المهام الخاصة» ونقول لهم لماذا تقبضون على المخربين في منتصف الليل وأنتم ملثمون؟!.. ولماذا تقتحمون عليهم بيوتهم بدون استئذان؟!. هل لبيوت المخربين حُرمة أصلًا؟!.. هل مطلوب من قوات المهام الخاصة أن تستأذن من المجرمين قبل القبض عليهم؟!.. ثم إن هذا السجين بالذات أَشْهَرَ في وجوه هؤلاء بندقيته الشوزن بحجة أنه كان

يظن أنهم لصوص لأنهم اقتحموا البيت آخر الليل وهم ملثمون.. لماذا يغضب الآن ويخيط فمه وهو معترف أنه أعاق موظفي الدولة أثناء تأديتهم واجبهم؟!.. الدولة لها احترامها، وإذا لم نحترم موظفي الدولة فهذا يعني أننا في غابة.

ـ 14 ـ

المترجم المصري:
عُمان مذكورة في القرآن؟!

عجيبة هذه الدنيا.. من كان يتصوّر ـ بعد هذه القطيعة ـ أن ألتقي مرة أخرى جار النبي ونتبادل السلام والأحاديث وكأن شيئًا بيننا لم يحدث.. والأعجب أن سبب قطيعتنا هو نفسه سبب وصلنا الآن: عم بسيوني.. شخصيًا لا أحمل عليهما أي حقد في قلبي، ولكن لن أخدع نفسي بالقول إن صداقتي لجار النبي لم تتأثر بالذي حدث.. كل ما أفعله الآن من زيارات للعم بسيوني في المستشفى، وعبارات مجاملة لابنه هي ما يمليه عليّ الواجب تجاه ابن بلدي في بلد يُعتبَر لثلاثتنا بلدًا غريبًا، مهما كان كرم وطيبة ودماثة أهله التي لا يمكن أن أنكرها.. كم تمنيت من كل قلبي أن يفيق العم بسيوني من غيبوبته لأوصل إليه سلامات ودعوات أبي من الزمالك.. أبي الذي لم يره ولكنه يدعو له في صلاته بالشفاء لفرط ما حكيتُ له عنه.. والدي المتدين بفطرته بلا تعصّب ولا تطرف قهقه كثيرًا عندما سردتُ له حكاية نصح عم بسيوني لي «سيبك من لغة الكفرة دول» قاصدًا اللغة الانجليزية التي هي مصدر رزقي الآن لكوني مترجمًا محترفًا.. ولتعاملي بهذه اللغة كثيرًا فقد تعوّد لساني بعض مفرداتها من قبيل «sorry»، و«no way». وكان عم

بسيوني يستشيط غضبًا كلما سمعني أطعّم كلامي العربي ببعض الجمل الانجليزية:

- يا ابني.. مش كويس اللي انته بتعمله ده.. انته مش عارف إن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة؟!

- لا والله يا عم.. أول مرة أعرف!!.. طب وبقية الناس، اللي مش عرب يعني، حيتفاهموا ازاي؟!.

في اليوم نفسه سألتُ رئيس القسم الديني وأنا أسلمه ترجمتي لما كتبه مايكل هارت في كتابه «الخالدون مائة» عن النبي محمد لنشره في الملحق الديني:

- هل مر عليك يا شيخ داود فيما قرأتَ من كتب دينية أي شيء عن اللغة التي يتكلم بها الناس في الجنة؟..

ضحك الشيخ داود وكأنه فهم مغزى سؤالي وقال: «المسألة لها علاقة ببسيوني.. صح؟».. قلتُ: «صح».. رد الحراصي: «سبق أن تجادلنا أنا وهو في الموضوع نفسه.. هو يريد أن يقنعني أن العربية لغة أهل الجنة وأنا أحاول إقناعه أن هذا ليس سوى تعصب مقيت للغته، وأن ما أعرفه حقًا أن كلام الله مختلف في لغته، لكن الحكمة قدسية كلام الله بغض النظر عن اللغة التي كتب بها، والعربية في القرآن هي كوعاء فقط،كما أن الحكمة تتجلى أيضًا في قيمة كلام الله غير القابلة للتجزيء بسبب اللغة التي كتب بها. التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، والقرآن كلها كتب أنزلها الله تعالى وأضفى عليها قدسية الحكمة رغم أنها كتبت بلغات مختلفة»..

قلتُ له: «عم بسيوني يستشهد بثقة مطلقة بما يقول إنه حديث يزعم أن النبي يحب العرب لأنه عربي ولأن القرآن عربي ولأن لسان أهل الجنة عربي!!».. قال الحراصي: «أبسط دارس للحديث يعرف أن هذا الحديث موضوع لأنه لا يدخل العقل.. لا بد أنه أيضًا قرأ لك ما كتبه الثعالبي في «فقه اللغة»: «من أحب الله تعالى أحب رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي فقد أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي أُنزل بها أفضل الكتب، على أفضل العجم والعرب، ومن هداه الله للإسلام اعتقد أن محمدًا ﷺ خير الرسل والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة.».. قلتُ مندهشًا: «كأنك كنتَ معنا يا شيخ داود!!.. فعلًا استشهد بكلام الثعالبي وأنا رددتُ عليه بأنه ـ أي الثعالبي ـ ليس حجة لكي نأخذ كلامه هذا على عواهنه، فهو لم يقتصر في إحاطة اللغة العربية بهالة من القداسة بل أضاف إليها الأمة العربية!! مما يجعلنا أمام تكريس مفهوم مسلمين من الدرجة الأولى ومسلمين من الدرجة الثانية».. قال الحراصي: «وأنا أضيف إلى كلامك ما كتبه ابن حزم الأندلسي عن الموضوع نفسه: «وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لا معنى له، لأن أوجه الفضل معروفة...وما جاء نص في تفضيل لغة على أخرى، قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم». ويخبرنا ابن حزم أن أسطورة تفوق لغة على أخرى ليست بدعًا على العرب، فقد سبقهم اليونان إلى ذلك فنرى مثلًا جالينوس يدعي أن لغة اليونان

أفضل اللغات، لأن سائر اللغات تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع!!».

كان الجدال حول اللغة العربية هو أول توتر لعلاقتي بالعم بسيوني، أما آخر توتر فقد كان رفضي التصويت لمرسي، وبينهما توتر ثالث كان قبل سفري إلى مصر بثلاثة أشهر عندما ترجمتُ مقالًا نشرته جريدة «الغارديان» البريطانية يوم الخميس 30 سبتمبر 2010 لأستاذة الأدب الانجليزي بجامعة الإسكندرية أميرة نويرة في الذكرى الأربعين لرحيل الزعيم جمال عبد الناصر تساءلتْ فيه عما إذا كان عبد الناصر مات جراء إصابته بنوبة قلبية أم قتل مسمومًا؟.. وتحدثت فيه عن الحنين إلى عصر عبد الناصر في ظل أوضاع التعليم الزرية، والفجوة الفاحشة القائمة بين الفقراء والأغنياء في مصر. كنتُ أعرف قبل ذلك مقدار الكراهية الشديدة التي يكنها بسيوني لعبد الناصر.. وفي الواقع فإن كلمة «يكنها» هنا غير دقيقة، فهو يبدي هذه الكراهية للقاصي والداني ولا يكنها..ومازالت حكايات مقالب الخنصوري له تملأ أروقة الجريدة، ولذا فإنني مراعاة لمشاعره فضلتُ أن أقدمه للتصحيح في مناوبة السوداني عثمان الميرغني.. وعندما قرأ بسيوني المقال منشورًا في الجريدة مذيلًا باسمي كمترجم جن جنونه وجاءني وهو يرتعش:

- حضرتك ما لقيتش في الجرايد العالمية كلها حاجة تترجمها إلا المقال الهايف ده؟!!..

قلتُ بهدوء: «وهايف ليه يا عم بسيوني؟»

قال وهو يفرد صفحة الجريدة أمامه ليقرأها: «هايف ليه؟!.. اقرأ حضرتك هببت أيه!»

أمسكتُ الجريدة من يده وطفقتُ أقرأ بصوت مسموع الفقرة التي أشار إليها بإصبعه: «الذكرى الأربعون لرحيل ناصر تميزت بموجة من الحنين إلى بعض المبادئ التي تميزت بها الحقبة الناصرية، منها تحديد الملكية الزراعية، والتوزيع العادل لثورة العدالة الاجتماعية؛ ورغم كل السقطات المعترف بها لنظام ناصر، إلا أن جمال عبد الناصر نفسه لم يكن متورطًا في أي فساد في الذمة، وكان واضحًا أنه لم يحقق أي مكاسب شخصية مالية كانت أو سياسية، من منصبه؛ فهو رجل العائلة الذي عاش حياته بتواضع وارتدى ملابس عادية وكان فخورًا بأنها صناعة مصرية وأصر على ألا يتمتع أبناؤه بأية مميزات، وأن يعاملوا كنظرائهم من عامة الـ...».

قاطعني هاتفًا: «حيلك حيلك.. ناقص تقول إنه نبي مرسل».

قلتُ مبتسمًا: «مش أنا اللي بقول.. دي أميرة نويرة، وناقل الكفر ليس بكافر».

ـ ربنا لا يسامحها.. رب كلمة قالت لصاحبها دعني.. وحضرتك عايز تعمل لي فيها محايد!.. والله لولا أن كلامها الفارغ صادف هوى في نفسك ما كنتش ترجمته.

في الواقع هذا تحليل منطقي من عم بسيوني.. فأنا لم أترجم هذا المقال إلا لأنه أعجبني.. فهل عليَّ أن

أعتذر عن ذلك الآن؟!.. هنا جاء الفرج من عند الله بقدوم سالم الخنصوري الذي أخذني بالأحضان وأخذ يقبلني وهو ينظر بنصف عين إلى بسيوني: «أهنيك يا محسن، على هذا المقال الجميل اللي ترجمته.. أثلجتْ صدورنا والله بتذكيرنا بهذا الزعيم العربي الكبير.. ومثل ما قالت كاتبة المقال إن ناصر نفسه جسد حلمًا كان وما يزال له صدى ليس في بلاده فقط، بل أخذ طريقه أبعد من حدوده.. يا رجل احنا في عُمان نعتبر عبدالناصر عُماني.. أنا عندي صديق اسمه جمال عبدالناصر الفلاحي أبوه سماه جمال تيمنًا بالزعيم الكبير، لا وأزيدك من الشعر بيت صديقي يزعل إذا ناديته على طريقة العمانيين جمال بن عبدالناصر.. لازم تناديه جمال عبدالناصر بدون «بن» رغم أن اسمه مش مركّب».

هنا انسحب عم بسيوني وهو يتمتم بصوت تعمد أن يكون مسموعًا: «قل أعوذ برب الناس».. بدا لافتًا أنه يحاول تحاشي الخنصوري والابتعاد عنه قدر الإمكان، سأعرف بعد ذلك من الأستاذ عثمان الميرغني أنه عندما شتم الخنصوري في المرة الأخيرة وشكاه هذا إلى رئيس التحرير أنكر بسيوني أنه نعته بالكلب ولكن الخنصوري أخرج هاتفه وأسمعهما وصلة الشتيمة»، وهو الآن ـ أي العم بسيوني ـ يؤمن إيمانًا راسخًا أن سالم الخنصوري يتحين له الفرص ليوقعه في الخطأ، ولذا فإنه يتحاشاه.. الخنصوري يشعر بالندم الآن على ما كان يفعله في عم بسيوني من مقالب.. لم يقل ذلك بشكل مباشر ولكنني كنتُ أقرأ نظرة الخجل في عينيه كلما تذاكرنا العم بسيوني

وغيبوبته الطويلة هذه.. وهو الخجل نفسه الذي أراه الآن في عيني جار النبي لسبب آخر.. ليس الوقت مناسبًا الآن لأخبره أنني طويت صفحة الماضي، وأنني خلال فترة القطيعة الماضية فكرتُ كثيرًا في ما جرى والتمستُ له كل العذر ولا شيء في نفسي اليوم تجاهه.. جار النبي باختصار ضحية أبيه.. أشبّه علاقتهما بصحيفة المساء وملحقها الإعلاني الذي يصدر كل أحد بنظام التابلويد.. ذلك الملحق يستمد شرعية صدوره من الصحيفة الأم، ولا يمكن اعتباره صحيفة كاملة لها استقلالها عن صحيفة المساء.. وهكذا هو جار النبي، لا يمكن اعتباره إنسانًا مستقلًا عن الإنسان الآخر الذي جاء منه: عم بسيوني.. وهذا هو لب مشكلتي معه.. إن كنتُ غضبتُ مما جرى فقد غضبتُ لأجله لا منه.. كنتُ أريده أن يكون شخصية مستقلة لها اعتبارها الخاص لا مجرد تكملة لشخصية أبيه.. وعندما حرضتُه على الإصرار على السفر إلى إيطاليا وعدم إضاعة فرصة العمل هناك فلأنني أردتُ له أن يبدأ أول الطريق في صنع شخصيته المستقلة، لا أن يظل مجرد دمية بيد أبيه.. لكنه ويا للأسف امتثل لأوامر أبيه بعدم السفر وظل بالقرب منه في عُمان يتدحرج من مشكلة إلى أخرى حتى كاد يُرمى في السجن.. جار النبي للأسف يفهم بر الوالدين خطأ: أن يظل مستلبًا لأبيه طوال عُمره، ينفذ له رغباته، ولا يرفض له أي طلب لكي لا يُغضب الله فيدخل النار، حتى وإن كانت طلبات أبيه نفسها هي التي تغضب الله!.. وإلا فما معنى أن يتخلى عن حبيبته التي أَحَبَّها وأحبته، ورفضتْ ثلاثة خاطبين من

أجله من بينهم ابن عمها، لمجرد أن أباه يختلف سياسيًا مع أبيها!!.. وما معنى أن يخبرني هو بنفسه أنه مصدوم من تراجع الإخوان عن تعهداتهم بعدم تقديم أي مرشح منهم لمنصب رئيس الجمهورية، ثم يعطي صوته ببساطة لمحمد مرسي لمجرد أن أباه طلب منه ذلك!!.. أبوه يمكن أن ألتمس له العذر كإخواني قديم ما زال ولاؤه للإخوان قائمًا إلى الآن، حتى وإن كان يدعي أنه لم يعد إخوانيًا.. إنه الوفاء لأيديولوجيا لم تتغير حتى اليوم.. ولكن أي أيديولوجيا تحرك جار النبي غير ضعف الشخصية والاستلاب الممجوج للأب.. إنه مهزوز، ورغم طيبته سيظل مهزوزًا طوال عمره.. ورغم أنني واثق تمامًا أن سبب تجاهل جار النبي لي خلال الفترة التي تلت تصويتنا في السفارة هو أبوه لا غيره، واتضح ذلك أكثر من تجاهل العم بسيوني لي في الجريدة بعد ذلك وعدم رده السلام عليّ، إلا أنني مع ذلك أحترم العم بسيوني أكثر من ابنه.. على الأقل له رؤية في الحياة وهو مخلص لها اتفقنا مع هذه الرؤية أم لم نتفق..

الغريب أن عم بسيوني يصر دائمًا أنه ترك جماعة الإخوان من سنوات طويلة، لكن كل تصرفاته تدل على عكس ذلك، بل إن الإخواني المتعصب لا يفعل ما يفعله العم بسيوني.. يكفي مثلًا أن سبب قطيعته معي هو أنني رفضت التصويت لمرسي!.. وعندما أُعلِنَ فوز مرسي ذهب إلى مطعم الجريدة وطلب من رشيد الهندي نادل المطعم أن يحضر كيسين كبيرين مليئين بالمشروبات الغازية ووضعهما

في صالة التحرير وهو يقول: «دي حلاوة الريس مرسي».. كانت تلك من المرات النادرة التي أراه فيها يترك مخزنه الصغير ويخرج بثقة وفخر إلى «ميدان التحرير».. أخذ ينادي الحاضرين في الصالة واحدًا واحدًا: «تفضل يا أستاذ داود.. تفضل يا أستاذ حسن.. تفضل يا أستاذ عثمان.. تفضل يا أستاذ مبارك.. تفضل يا أستاذ بدر»، وأنا الذي كنتُ قبل شهر فقط أعز أصدقاء ابنه تجاهلني تمامًا وكأنني لستُ موجودًا في الصالة.. وعمومًا ما كنتُ لأشرب نخب مرسي وأنا الذي ما صوتُّ له ولا سعدتُ بفوزه.. تصادف ذلك كله مع خطبة الانتصار لمرسي في ميدان التحرير التي كان الجميع يستمعون إليها على شاشة البي بي سي.. وعندما فتح عروة البذلة كاشفًا صدره للناس ليثبت لهم أنه لا يرتدي واقيًا للرصاص هتف عم بسيوني: «شفتوا ازاي؟!.. كده يكون الريس المؤمن ولا بلاش.. ده ما بيخافش غير ربنا.. آه.. ده حافظ القرآن كامل وبيصلي الفجر حاضر».. علق الأستاذ حسن العامري بالقول: «دينه لنفسه.. مصر محتاجة رئيس، مش مطوّع»، قال عم بسيوني بهدوء: «النهارده أول أيامه في الرياسة، لازم نديله فرصة زي ما اديناها لغيره وهو ما يستاهلهاش».. قال الشيخ داود الحراصي: «كلام الشيخ بسيوني صحيح.. لازم ننتظر على الأقل المئة يوم الأولى في حكمه وبعدين نشوف».. هنا ظهر فجأة سالم الخنصوري قادمًا من مكتب رئيس التحرير، ويبدو أنه سمع تعليق الشيخ داود فوجدها فرصة لإغاظة العم بسيوني دون أن يوجه إليه الكلام مباشرة: «على ذكر

المئة يوم الأولى يا شيخ داود عندي ملاحظة تاريخية مهمة، هي أن انقلاب الضباط الأحرار في 23 يوليو 1952 تحول إلى ثورة بعد 48 يوم بس لما صدر قانون الإصلاح الزراعي اللي أعطى للمزارعين الأجراء المعدمين خمسة أفدنة لكل واحد منهم، خلونا نشوف شو بيسوي مرسي».. انفعل عم بسيوني وصرخ في وجه سالم: «حسبي الله ونعم الوكيل.. ربنا ينتقم من الظالم.. انته أيه؟!.. ما تهمدش؟!.. حتى في اليوم الوحيد اللي فرحت فيه هنا لازم تعكنن عليّا فرحتي.. حسبي الله ونعم الوكيل»، وغادر القاعة متوجهًا إلى مكتب رئيس التحرير وسط ذهول الحاضرين.. يبدو أن الخنصوري لم يرَ من عم بسيوني إلا وجهه القبيح: وجه المتعصب لرأيه الذي لا يريد ولا يسمح لأحد بمخالفته الرأي، ولهذا يحاول دائمًا استفزازه بالزج باسم عبدالناصر وثورة يوليو بمناسبة وبدون مناسبة.. ولكن هذا اختزال تبسيطي لشخصية العم بسيوني.. فمن يقترب منه جيدًا يعرف أنه في دخيلته رجل طيب وعلى نياته، تسعده كلمة مجاملة بسيطة من قبيل «أيه الشياكة دي كلها يا عم»، وتغضبه ملاحظة عابرة من قبيل تذكيره بأنه نسي ارتداء ربطة العنق مثلًا على غير العادة.. إنه من ذلك النوع من الرجال الذي لا يعرف معنى الوسط، فهو إما أن يحب بكل مشاعره وإما أن يكره بجميع ما فيه.. وإذا كان متطرفًا في كراهيته لعبد الناصر فإنه في المقابل متطرف في حبه لمصر لدرجة أنه لا يقبل أن تُنتَقد أيُّ سياسة لها.. أذكر أنه عندما قُدِّمَ له مقال بعنوان «دولة في دكة الاحتياط» للكاتب زاهر المحروقي

لتصحيحه مزقه بيده ورماه في سلة المهملات بسبب انتقاده العنيف لمصر لدرجة أن نشره تأخر أسبوعًا، وعندما قُدِّم للتحقيق حول سبب تمزيقه للمقال صرخ في وجوه المحققين معه مستنكرًا: «أيه؟!.. مصر دلوقت اللي بقت ف دكة الاحتياط؟!.. ومين بقا اللي جوّه الملعب بتلعب أساسي وبتجيب جوان؟!: سلطنة عُمان؟!.. انتوا نسيتوا مين اللي علمكم وخلاكم بني آدمين؟!»، ومؤكد أن بسيوني لا يعرف أن عنوان مقال المحروقي هو تقريبًا عنوان كتاب علاء الأسواني نفسه «مصر في دكة الاحتياطي»!.. وعندما كتب حسن العامري افتتاحية في الملحق الثقافي بعنوان «مصر التي نحب» غضب بسيوني بسبب الفقرة الأخيرة من المقال رغم أن بقية المقال في حب مصر وريادتها للفعل الثقافي والسياسي في العالم العربي، ولكن الفقرة الأخيرة كانت تأخذ على مصر ما أسماه المقال بـ«تآكل النخبة» حيث أنها تراجعت في السنوات الأخيرة فنًا وأدبًا ورياضة، وهو كلام كتبنا فيه نحن المصريين عشرات المقالات قبل العامري وبعده، ومع هذا استشاط عم بسيوني غضبًا وقال للعامري وهو يرفع سبابته في وجهه: «مصر هي مصر، وحتبقى هي مصر، لأنها مذكورة في القرآن غصبًا عنكم.. قول لي من فضلك: عُمان مذكورة في القرآن؟!».. عم بسيوني لا يعرف معنى الاختلاف في الرأي، وإذا ما أراد المرء أن يحافظ على علاقته به جيدة فعليه ألا يخالفه في آرائه، وهذا ما يفسّر حالات المد والجزر في علاقتي به، قبل أن يقضي على هذه العلاقة تمامًا عمنا محمد مرسي العياط..

لعل غيبوبته الآن منذ أربعة أشهر هي رحمة من الله به لكي لا يكتشف أن صوته ذهب هباء منثورًا، وأن مرسي الإخوان حنث بقسمه أن يحترم الدستور والقانون فانقلب عليهما بـ«إعلانه الدستوري» ومنح نفسه سلطات وعصمة من المساءلة كما لم يفعل من قبل مبارك ولا أي حاكم مصري منذ أيام الفراعنة!!.. وأنه اكتفى خلال خمسة أشهر من حكمه حتى الآن بإعادة استنساخ الأيام الأخيرة لحكم المخلوع حسني مبارك.. وأن المشكلات الخمس التي تعهد حلها في المئة يوم الأولى بعد تنصيبه، وهي مشكلات المرور وطوابير العيش والنظافة والأمن والطاقة فشل فيها فشلًا ذريعًا، فلم تتراجع هذه المشكلات إذا لم نقل إنها تفاقمتْ.. وعندما أراد أن يبدو مهتمًا بالتصنيع في عهد «النهضة» الجديد افتتح ـ دون أن يدري على الأرجح ـ مصنعًا في الدخيلة سبق أن تم افتتاحه في عهد مبارك سنة 2010!!.. خير لبسيوني أن يظل سادرًا في غيبوبته من أن يسمع رطانة عن سعر المانجا الذي بلغ ثلاثة جنيهات، دون أن يقول سيادة الرئيس شيئًا عن سعر الطماطم الذي بلغ سبعة جنيهات، ولا عن كرتونة البيض التي وصل سعرها إلى 26 جنيهًا.. نم يا عم بسيوني ودعك في غيبوبتك حتى لا تسمع من وصفتَه بالرئيس المؤمن «اللي ما بيخافش غير ربنا» وهو يخاطب الرئيس الاسرائيلي بـ«صديقي العظيم»، ولكي لا تسمعه يفسّر القرآن كما لم يفسره أحد من قبل ليخبرنا دون أن يرف له جفن أن الله يخشى من عباده

الثورة من ألفها إلى يائها دون أن أخشى على مصدر رزقي.. كنا كمصريين نعيد اكتشاف ذواتنا من جديد، نعيد صقل أنفسنا ليتكشف معدننا الأصيل.. كانت روح جديدة تسري فينا لم نألفها من قبل، الغني والفقير، الموظف الكبير والصغير، العجوز التسعيني والشاب العشريني، الفتاة والفتى، التلميذ والمعلم، يتجمعون كلهم في ميدان التحرير الذي بدا أيامها المكان الأكثر أمنًا في العالم.. خارجه يمكن أن يتعرض لنا البلطجية، أو يقنصنا القناصة، أو يقبض علينا رجال أمن الدولة المتخفون في زي مدني، وحده الميدان لا يمكن لهؤلاء دخوله بسهولة دون تفتيشهم والتأكد من بطاقاتهم الشخصية.. كان ميدان التحرير بيتي وملاذي طوال أيام الثورة، لم أغادره إلا مرتين: الأولى في بدايات الثورة عندما توجهت إلى «جاد» لإحضار السندويتشات للمعتصمين، والثانية مساء الثلاثاء الذي ألقى فيه مبارك خطابه، لأستحم وأغير ملابسي.. وفي الفترات القليلة التي تتحسن فيها ظروف الاتصال كنتُ أتلقى اتصالات كثيرة من الزملاء في عُمان للاطمئنان إلي وإلى مصر.. اتصل بي الشيخ داود الحراصي، والأستاذة زينب العجمي وابنها علي، والأستاذ حسن العامري، وسالم الخنصوري.. أما الوحيد الذي لم يتصل ولم يسألني عن شيء فهو عم بسيوني رغم أن علاقتي به تلك الأيام كانت سمنًا على عسل كما يقال.. عندما عدتُ إلى عُمان بعد انتهاء الثورة قال لي عم بسيوني أن قلبه كان معنا، وأنه

الذي لا يحب
جمال عبد الناصر

ألم تفكروا للحظة أن يكون بسيوني رأى جمال عبد الناصر فعلا ، وأن هذا الأخير هو الذي وضع له باقة الورد التي عليها توقيعه ؟! .. هناك احتمال كبير ألا يكون عبد الناصر قد مات بالفعل عام 1970 وإنما خطفه أحد السحرة فصار من «المغايبة» .. أنتم تعلمون أن هذا يحدث كثيراً في عُمان : يموت رجل أو امرأة أو طفل فيُدفن ويُقام عزاؤه وتمضي الأيام والسنوات ، فإذا به يظهر لأهله في هذا الوادي، أو تلك الهضبة ، أو يُشاهَد في المزرعة ، أو أمام باب البيت ، أو داخل البيت نفسه ، دون أن يستطيع أن ينبس بكلمة، ويظل بعد ذلك أهله يضربون أخماساً بأسداس ممزقين بين الفرحة بظهوره مجددا وبين الخوف منه .. «المغيّب» يعود للظهور بعد أن يموت الساحر الذي خطفه .. ومن يدري فقد يكون الساحر الذي اختطف جمال عبد الناصر قد مات مؤخرا فأتيح لعبد الناصر أن يعود للحياة من جديد .. قبل عدة سنوات تدُوولتْ لدينا في عُمان صورة لعدد من «المغايبة» قيل إنهم ظهروا فجأة في أحد كهوف مدينة فنجا وجدهم عمّال أثناء شقّهم طريق مسقط نزوى السريع.. كانوا أشبه بالإنسان البدائي الأول : وجوه متغضنة ، وشعور مشعثة ، وسحنات مخيفة .. اتضح فيما بعد من جريدة الشبيبة أن الصورة ليست سوى لمعرض الشمع في باريس .. آه .. كم تمنيت أن تكون جريدة المساء صاحبة هذا السبق ، ولكن للأسف لم يكن لدي صحفيون أكفاء في تلك الأيام .. قد تتساءلون : إذا كان عبد الناصر من «المغايبة» بالفعل فلماذا يظهر في عُمان وليس في مصر التي وُلِد ومات فيها ؟! .. الجواب بسيط : ربما يكون الساحر الذي خطفه عمانيا . أو لعل هذا الساحر مصري ولكن وافاه الأجل خلال مؤتمر للسحرة في عُمان! .. «كل شيء جايز»

تصوير و تصميم : بدور الريامي

